www.facebook.com/ZaitonMagazine - zaiton.mag@gmail.com - www.zaitonmag.com
محلية اجتماعية ثقافية نصف شهرية مستقلة السنة الرابعة | 15 حزيران 2018

زيتون

العدد: 178

رمضان وعيد أول على مهجري الغوطة في إدلب

تشكيل سريع وغامض لمجلس مدينة إدلب من قبل تحرير الشام

أجريت يوم الاثنين الماضي، عملية التصويت لتشكيل مجلس مدينة إدلب، وذلك بعد مرور سبعة أشهر على المدينة دون وجود مجلس لها، عقب اقتحام هيئة تحرير الشام للمجلس السابق في أواخر آب الماضي، وإغلاقه والاستيلاء على كافة المؤسسات المدنية في مدينة إدلب.

ربيع زيتون

ونقلت مصادر إعلامية محلية عن رئيس اللجنة التحضيرية لانتخابات مجلس مدينة إدلب أحمد دخان أن فكرة تشكيل المجلس أُطلقت من قبل بعض المخاتير واللجان المدنية في مدينة إدلب، ليتم بعدها تشكيل لجنة تحضيرية بدأت بالعمل قبل أسبوعين، وذلك بالتنسيق مع اللجان الشعبية التي تعتبر القاعدة الشعبية لتشكيل مجلس المدنية، على حدّ قوله.

وأوضح "دخان" أن شروط الترشح للانتخابات تتمثل بأن يكون المتقدم منتمياً قيداً إلى مدينة إدلب، وأن لا يقل عمره عن الثامنة عشر، وأن يتمتع بالخبرة في مجال عمله، وأن يكون حسن السيرة والسلوك.

"فراس علوش" أحد المترشحين لعضوية مجلس مدينة إدلب والذي تم اختياره كرئيس لمجلس المدينة قال لزيتون: شارك ٩٢ مصوتا بالتصويت على المرشحين من أصل ١٢٠ ناخباً.

وترشح لعضوية المجلس الذي سيضم سبعة إلى ٩ مكاتب حسب ما تقتضيه الحاجة، أربعون مرشحاً بينهم ٤ نساء، تم استيفاء شروط الترشح لديهم، وتم اختيار ٢٥ مرشحاً منهم لشغل منصب عضوية المجلس، وذلك من قبل اثنين وتسعين ناخباً من لجان الأحياء ومخاتير المدينة الذين قاموا بالتصويت، وفقاً لما نشرته ما تسمى بـ حكومة الإنقاذ على موقعها الرسمي، والتي يتبع لها مجلس مدينة إدلب الجديد.

وأصدر مخاتير ولجان أحياء مدينة إدلب في ٢١ أيار الماضي إعلاناً حول تشكيل مجلس مدينة إدلب، تبعه بعد ٥ أيام بيان أُعلن فيه عن فتح باب الترشح للراغبين خلال مدة ٤ أيام فقط، لتعقبه عملية اختيار أعضاء المجلس في ٤ حزيران الجاري، وبذلك تكون المدة التي استغرقها تشكيل المجلس ١٤ يوماً فقط.

وكانت هيئة تحرير الشام قد قامت باقتحام مجلس مدينة إدلب السابق في ٣٠ آب الماضي، بعد توجيهها إنذارات له بتسليمها إدارة المؤسسات والدوائر الخدمية في إدلب، ورفض المجلس لمطالبها، وذلك بعد تشكيلها ما يعرف بـ الإدارة المدنية للخدمات، والتي بدأت عملها بالسيطرة على المؤسسات الخدمية في المحافظة، وإنهاء المجالس المحلية والهيئات السياسية والمدنية، بقرارات إقصائية لتلك المجالس.

كما قامت هيئة تحرير الشام في محاولة لتمويه سيطرتها على الحياة المدنية في المحافظة بشكل عام، ومدينة إدلب بشكل خاص، بدفع بعض الأكاديميين في جامعة إدلب لإطلاق مبادرة إدارة مدنية للمحافظة أفضت إلى حكومة الإنقاذ الحالية، التي تم الإعلان عنها في ٢ تشرين الأول الماضي، برئاسة "محمد الشيخ" رئيس جامعة إدلب سابقاً، ضمن مؤتمر عُقد في معبر باب الهوى الحدودي.

وتعتبر حكومة الإنقاذ الواجهة التي تتخذها هيئة تحرير الشام في إطار سلسلة من الإجراءات قامت بها عقب سيطرتها على المحافظة في ٢٣ تموز الماضي، في محاولة منها لإيهام العالم بإدارة المحافظة من قبل إدارات مدنية.

وكان مجلس مدينة إدلب المنتخب السابق قد حمل سابقا حكومة الإنقاذ مسؤولية الفلتان الأمني الذي تعيشه مدينة إدلب، وحالات الخطف التي تحدث، في إشارة إلى اختطاف أحد أعضاء المجلس، داعياً الجهات المسيطرة على المدينة لتحمّل مسؤولياتها في حماية الأهالي والممتلكات، وندد المجلس بحالة اللامبالاة والخطف والقتل والتعدي على الناس بشكل يومي، مشيرا إلى ما حدث من خطف عضو مجلس المدينة المهندس محمد جمال أسود".

وقالت مصادر أهلية إن هناك صراعا ما زال يدور في المحافظة ما بين حركة أحرار الشام من جهة وهيئة تحرير الشام من جهة أخرى، ظهر في شكل تكتلات وتحالفات سياسية تهدف إلى تشكيل مجلس مدني لإدارة المدينة، وأضافت المصادر بأن مسؤول حكومة الإنقاذ في المدينة قد هدد هذه التكتلات في حال اتخذت مثل هذه الخطوات، مبرراً أن هذا من اختصاص الحكومة، وهو ما يفسر سرعة تشكيل مجلس مدينة إدلب بهذا الشكل وبهذا الغموض.

أهالي سلقين يتخلون عن إيجار منازلهم للمهجرين

مصطفى العلي

في حملة ليست جديدة على أهالي إدلب، اتفق عدد من مالكي البيوت المؤجرة، في مدينة سلقين بريف ادلب الغربي، على التسامح في إيجار منازلهم المؤجرة لمهجرين الغوطة في شهر رمضان.

وقال أحد مالكي المنازل في مدينة سلقين لزيتون: «في هذا الشهر الفضيل من المعيب حقاً أن نأخذ إيجارا عن ممتلكاتنا من إخواننا المهجرين وهم في أشد الحاجة إلى ما يسد رمقهم، إلا أن البعض من أصحاب البيوت المؤجرة للمهجرين رفض الانضمام معنا فيما أكتفى أخرون بتخفيض مبالغ إيجاراتهم بنسبة ١٠٪».

ويشكل تأمين المنازل من أكبر التحديات التي يعاني المهجرون الوافدين إلى مدينة سلقين، وذلك بسبب غلاء إيجاراتها نسبة للاكتظاظ السكاني الكبير الحاصل في المدينة جراء توافد الألاف إليها على اعتبارها منطقة شبه آمنة بسبب قربها من الحدود التركية.

ويصل إيجار البيت العربي أو الطوابق الأرضية في مدينة سلقين وريفها إلى ١٠٠ دولار، بينما لا يتجاوز ٥٠ دولاراً للطوابق العليا التي يتجنبها السكان خوفاً من القصف.

منير أحد مهجري الغوطة المقيم في مدينة سلقين قال لزيتون: «منذ أن أتينا إلى محافظة إدلب والأهالي يعاملوننا وكأننا أفراداً في عائلاتهم، لكن لا يخلو الأمر من تجار الأزمات».

وأضاف: «حين لجأنا إلى مدينة سلقين قمنا باستئجار غرفة واحدة فقط في إحدى البيوت العربية بمبلغ ٥٠٠٠ ليرة سورية لليلة الواحدة (أي ما يعادل ١٠ دولار أمريكي)، وبعد عدة أيام قمنا باستئجار منزل كامل بمبلغ ٥٠ دولاراً شهرياً دون دفع تأمينات أو أجور عدة شهور، لم يكتفي صاحب المنزل بهذا بل قام بتزويدنا بأثاث منزلي بسيط كي نستطيع الإقامة بالمنزل، كما قام مؤخراً بالتخلي عن أيجار شهر رمضان بالكامل».

ويرى «ملهم العمر» أحد نشطاء مدينة سلقين أن هيئة تحرير الشام تتحمل المسؤولة الوحيدة عن هذه الأزمة، مشيراً إلى أن الهيئة تستغل المهجرين لجني المال فقط، موضحاً:

«في كل منطقة تسيطر عليها الهيئة تسعى لتملك كل ما فيها من موارد لا سيما العقارات والأراضي الزراعية المسجلة باسم الدولة سابقاً، والدوائر العامة، والأراضي الزراعية، والمنازل، والعقارات التي يملكها من تعتبرهم موالون للنظام، أو من طوائف أخرى كالعلوية والمسيحية، والتي تركت ديارها وخرجت باتجاه مناطق النظام».

ويؤكد العمر على أن الهيئة تقوم بتأجير هذه الممتلكات إلى الأهالي أو المهجرين بمبالغ كبيرة، بينما حولت أغلب ممتلكات الدولة إلى فنادق كالمركز الثقافي ومحكمة الصلح ومبنى مشفى الأهلي، وتقوم بإيجار الغرفة الواحدة بمبلغ ١٥دولار لليلة الواحدة للمهجرين الوافدين إلى المدينة».

وتسود ما بين الأهالي في مدينة سلقين نظرة اتجاه سلوكيات هيئة تحرير الشام بأن من يدعون الدين الإسلامي الذي أُسس على التسامح وحسن المعاملة، يرهقون جيوب المهجرين بإيجار المنازل أو المحال التجارية أو الضرائب، ويتهربون من الحملة التي دعا القائمين بحملة المسامحة عليها مكتب الخدمات التابع للهيئة في سلقين للالتحاق بها لكن المكتب رفض ذلك.

وكانت مدينة سلقين الواقعة في شمال إدلب على الحدود السورية التركية قد استقبلت أكثر من ١٠ آلاف نازح من المهجرين قسراً في الأشهر القلية الماضية، سكن جزء منهم في بيوت مؤجرة في المدينة وريفها، فيما اضطر القسم الآخر منهم للسكن في خيم عشوائية في الأراضي الزراعية، أو في مخيمات أنشأتها المنظمات الإنسانية، في ظل شح في المساعدات الإنسانية المقدمة لهم، وانعدام الخدمات الأساسية، وخاصة في المخيمات العشوائية.

مجالس الأعيان والشوري.. نتائج فاشلة لمقدمات خاطئة

في الصراع الدائر منذ بدء وجود الفصائل العسكرية في محافظة إدلب وحتى اليوم حول إدارة المدن وسلطة إصدار القرارات ما بين الفصائل العسكرية ممثلة بالفصيلين الأكبر هيئة تحرير الشام وحركة أحرار الشام سابقا وبين المجالس المحلية والهيئات المدنية، تمخض عن ذلك الصراع عدة محاولات كان منها ظهور تجمعات سياسية ومجالس أهلية وخدمية إحداها مجلسي الأعيان والشورى.

وعد البلخي

لم يكتب لهذين المجلسين النجاح، ويعود ذلك إلى آلية تشكيلها وتكوينها الذي تم على أساس المحاصصة العائلية ما استجر صراع الفصائل إليها وتصادم الولاءات في داخلها خلف مشاكل عدة أثرت على سير انتخابات المجالس المحلية أحياناً بدلاً من تسهيلها، كما أثرت على إدارة المدن والبلدات وانعكست في النهاية على مستوى الحياة والخدمات للأهالي.

وكانت مجالس الأعيان والشورى قد ظهرت بشكل بارز في محافظة إدلب عقب تحريرها في آذار ٢٠١٥، قبل أن تبدأ المجالس المحلية بالظهور، وذلك في محاولة لسد الفراغ الحاصل في المحافظة جراء توقف المؤسسات المدنية والخدمية والدوائر الحكومية، ومحاولة لإيجاد إدارات لمدن وبلدات المحافظة.

وتوزعت هذه المجالس ما بين مجالس أعيان ومجالس شورى، اقتصرت في بعض المدن على إحداها، بينما وجد المجلسين جنباً إلى جنب في مدن أخرى، وانتشرت مجالس الأعيان والشورى في كل من «سراقب، مدينة إدلب، معرة النعمان، خان شيخون، كفرنبل، أطمة، أورم الجوز، زردنا» وغيرها من مدن وبلدات المحافظة.

وشهدت مجالس الأعيان والشورى مشاكل عدة تتعلق بصلاحياتها ودورها أدت في كثير من الأحيان إلى استقالات ومشاحنات، وذلك بسبب المحاصصات العائلية والتجاذبات العسكرية، ومنها ما حدث في مدينة سراقب عقب الدعوة إلى انتخابات مجلس المحلي وما تبعه من اختيار مجلس أعيان جديد وحله بعد انتخاب المكتب التنفيذي صاحب السلطة الرقابية والإشرافية على المؤسسات في المدينة.

ويرى رئيس المجلس المحلي السابق إبراهيم باريش أن تجربة مجالس الأعيان والشورى كان الهدف منها سحب سلطة إدارة المدن من الفصائل العسكرية وإعطاءه للمدنيين، إلا أن تأسيس مجالس الشورى والأعيان على أساس عائلي ومحاصصات ضيقة أفشل تلك التجربة.

ويضيف باريش: «حين أفشلت الفصائل انتخابات المجلس المحلي عام ٢٠١٢ ظهر مجلس الأعيان الذي انبثق عنه مجلس الشورى، ظهرت الحاجة إلى وجود جسم مدني لتنظيم العمل المدني، وبعد ظهور مجلسي الأعيان والشورى عام ٢٠١٥، حدث صراع بينهما نتيجة لعدم وضوح الصلاحيات والاختصاصات، أفضت تلك الصراعات إلى تشكيل مجلس أعيان أخر».

ويبدو أن تجربة الأعيان والشورى لم تشهد تبلورا في الرؤية للعمل المدني أو السياسي، بل ظلت حبيسة الاصطفافات الفصائلية والعائلية ما أوقعها في ما أوجدت من أجل حله.

الناشط المدني وعضو المجلس المحلي السابق في سراقب «محمد مصفرة» يؤكد أن مجلسي الأعيان والشورى وقعوا في تيارات فصائلية متناحرة ما يؤكد عدم إمكانيتها للاستمرار، وهو ما تم في حل المجالس بشكل كامل ونهائي، مشيرا إلى أن الدور الوحيد كان لها في الانتخابات الأخيرة التي جرت وكان مجلس الأعيان فيها لب المشكلة بسبب انفراد رئاسة الأعيان دون الرجوع لأحد، وهو ما نتج عنه مشاكل كثيرة، مؤكدا أن لا وجود لأية نشاطات للمجلس لاحقا أو حتى اجتماعات دورية.

وفي خطوة لم تتضح بعد، دعا مجموعة من النشطاء إلى إجراء انتخابات لمجلس محلي في مدينة سراقب وذلك مع اقتراب نهاية المجس المحلي الحالي، وهو ما رفضه معظم الأهالي كما عبروا على مواقع التواصل الاجتماعي.

وحذر الناشط السياسي حسين أمارة في منشور شاركه من صفحة التجمع السوري الثوري من عرقلة انتخابات مجلس مدينة سراقب عبر إشراك مجلس الأعيان المنحل سابقا واستبعاد العملية الانتخابية المباشرة، ونبه المنشور من الأصوات التي تضع العصي في عجلات العملية الانتخابية عبر محاولة نفخ الروح في جسد مجلس الأعيان الميت بهدف تأييد زعامات عائلية طلقتها مدينة سراقب من سبعينات القرن الماضي.

التجمعات السياسية ومجالس الأعيان والشورى

لا تختلف علاقة التجمعات السياسية في محافظة إدلب بين الشارع الشعبي والفعاليات المدنية فيها، كما لم تبتعد وجهات نظر أعضاء هذه المؤسسات والفعاليات عن آراء الشارع بأداء التجمعات السياسية، ومن بين هذه الفعاليات مجالس الأعيان والشورى، والتي كان لها رأي في أداء التجمعات السياسية وفاعليتها.

رئيس مجلس الشورى في مدينة خان شيخون «طلال النجم» يرى أن كافة التجمعات السياسية في محافظة إدلب ضعيفة، وليس لها فاعلية على الأرض، وأن معظمها جاء بقالب جامد لا يتناسب مع ما يعانيه الشارع، وذلك لأن التجمعات ابتعدت عن الحاضنة الشعبية، كما أن عمل السياسيين المعارضين والتجمعات السياسية في الخارج أثر سلباً على أداء التجمعات السياسية في الداخل.

بينما اعتبر عضو مجلس الأعيان بمدينة جسر الشغور «محمود الشريقي» أن العمل السياسي في محافظة إدلب وصل إلى مستوى جيد في عام ٢٠١٦، فكان له دور كبير في نقل صوت أبناء إدلب للخارج، وأوجد لنفسه فعالية وصدى في الخارج، وذلك بعد أن كان العمل السياسي في الداخل بشكل عام غائباً تماماً منذ بداية الثورة وحتى عام ٢٠١٤، الأمر الذي سمح للمعارضة السياسية في الخارج بأخذ زمام المبادرة في ذلك الوقت والتحدث باسم الداخل، ما ترك أثراً بشكل أو بآخر على ثقة الشارع بالتجمعات السياسية التي ظهرت.

وقال عضو مجلس الشورى في جرجناز ورئيس المجلس سابقاً «هيثم درويش» لزيتون: «التجمعات السياسية في الداخل رغم تعددها ضرورة ملحة في وضعنا الحالي، ولكنها تقتضي أن تندمج هذه التجمعات ضمن تجمع واحد، وهناك عمل قائم على ذلك، ومن الطبيعي وجود سلبيات في عمل هذه التجمعات كونها تجربة جديدة دخلت المجتمع السوري، وأبرز السلبيات تعدد الأجسام السياسية، فالتعدد الحزبي يكون عادةً حالة صحية في المجتمعات في حالة الاستقرار، وليس في وضعنا الراهن».

وأضاف «درويش»: «هناك شيء من قلة التواصل بين التجمعات السياسية والشارع، والذي ينتظر من هذه التجمعات تشكيل جسم سياسي واحد يضم كافة الأجسام السياسية داخليا وخارجيا، وهنا تكمن إيجابية العمل السياسي».

أما رئيس مجلس الأعيان في سراقب «أحمد العبود» فقال لزيتون: «كان للأجسام السياسية التي تشكلت في الخارج تأثيراً كبيراً على العمل السياسي عموماً، بالإضافة إلى المال السياسي الذي استخدم في كثير من الأحيان لغايات شخصية ولشراء مؤيدين لأشخاص وليس لفكر أو نظام».

وعن العلاقة بين مجالس الأعيان والشورى بالتجمعات السياسية في المحافظة قال عضو مجلس شورى مدينة معرة النعمان ورئيس تجمع القلم الحر بالمدينة «بحر نحاس» لزيتون: «نحن كمجلس شورى مع التجمعات السياسية، وكنا وما زلنا نشجع هذه التجمعات، شريطة أن لا تكون تابعة للخارج، وسبق وأن كان هناك تنسيق فيما بيننا».

من جانبه قال عضو مجلس الأعيان بمدينة كفرنبل «محمود السويد» لزيتون: «كمجلس أعيان كفرنبل نشجع كل عمل سياسي يصب في مصلحة البلد ونصطف مع الدور المدني الغير فصائلي، ونتعاون مع التشكيلات السياسية المدنية الجادة».

ويشترط السويد في تفاعلهم الإيجابي مع هذه التجمعات أن تكون لها دوافع للتوحد، وحرية الكلمة، والعمل المؤسساتي، والبعد عن الأجندات الخارجية.

انتشار الذباب والبعوض يهدد المناطق المحررة بكارثة صحية

أسواق في ريف إدلب - زيتون

مع دخول فصل الصيف وارتفاع درجات الحرارة تتعرض مدن وبلدات محافظة إدلب لموجة من الحشرات باتت تؤرق قاطنيها وتقض مضاجعهم، في ظل غياب دور فاعل للمؤسسات المعنية بالشأن الصحي والخدمي في المنطقة.

ويرجح أن يعود انتشار الحشرات إلى انتشار بعض الأمراض، يفاقمه غياب واضح لحملات الوقاية من الحشرات الصيفية، إضافة إلى ما تعانيه المنطقة أصلاً من تراكم القمامة والنفايات، وتضرر في شبكات الصرف الصحي جراء القصف.

ويعزو المهندس الزراعي "ملهم محمد" انتشار الذباب والبعوض إلى "عدم مكافحتها بشكل كافٍ، إذ يغيب الدعم الجاد للمجالس المحلية والمسؤولين عن الأعمال الخدمية في المحافظة، إضافة إلى أن فصل الشتاء هذا العام لم يكن بالبرودة التي تتيح التخلص من الحشرات".

وأضاف لزيتون أن "موجات النزوح الضخمة التي حدثت سابقا والآن، وانتشرت فيها مخيمات عشوائية على أطراف المدن والبلدات دون تخديمها صحّياً، قد فاقم من المشكلة، خصوصاً الطرق غير الصحية في تخلص تلك المخيمات من القمامة بطريقة سليمة".

وعن تبعات انتشار هذه الأنواع من الحشرات، حذّر ملهم من الضرر الذي يمكن أن يلحق بالإنسان والثروة الحيوانية، حيث يمكن "انتشار حشرات ضارة بالمحاصيل الزراعية في الأراضي ستضر بالخضراوات وأساسيات التغذية".

ونوه ملهم إلى أنه "يجب على جميع المجالس المحلية الأخذ بشكل جاد ضرورة مكافحة هذه الحشرات ضمن رقعة واسعة، لضمان عدم انتشارها مجدداً"، مشيراً إلى أنه "لدى مكافحة البعوض والبق لابد من استخدام مبيدات (البايروتروئيدية)، ومبيدات الملامسة (دلتا مثرين) أو (سايبر مثرين) أو (ألفا سايبر مثرين) وهي المواد الفعالة التي كانت تستخدمها البلديات سابقا، إضافة إلى ضرورة استخدام المداخن للحصول على أفضل نتائج ممكنة".

يذكر أن منظمة "مينتور" العالمية كانت قد قالت في تقريرها الصادر هذا العام (٢٠١٨) إن نحو ٣٥ ألف نسمة مصابون بمرض اللشمانيا في مناطق حلب، وإدلب، وحماة.

سواعد الخير..
قوانين جديدة توطد سلطة النصرة

أسواق في ريف إدلب - زيتون

سنت سواعد الخير ذراع هيئة تحرير الشام في مدينة إدلب مجموعة قوانين جديدة تحت مسمى «قانون الآداب العامة»، والتي لاقت استهجان الناشطين والمدنيين في المدينة.

وشملت مواضيع القوانين الكثير من مجالات الحياة العامة للأهالي، في تدخل ملحوظ منها في أدق تفاصيل حياتهم ولباسهم ومظهرهم، ففرضت عليهم أنماطاً معينة من التصرفات والتعاطي مع بعض الأمور، ومنعت عليهم أخرى تحت طائلة المساءلة القانونية لكل مخالف لما أسمته نظاماً شرعياً يُلزم الناس، وفقاً لنص القانون.

وتمحورت القوانين التي سنتها سواعد الخير والصادرة عنها في ٣١ أيار الماضي، ضمن ما أطلقت عليه قانون الآداب العامة، والمكون من ٣ صفحات في بيان رسمي حصلت زيتون على نسخة منه؛ حول «إطلاق الرصاص في الأعراس، وكشف العورة، والتحرش الفظي بـ النساء، والمجاهرة بتشغيل الموسيقى، وحلق اللحية، والغش في البيع، والاحتكار والربا وتطفيف الميزان، وشعارات تشير للنظام السوري، بالإضافة إلى الاختلاط في المؤسسات المدنية والطبية والتجارية، والخلوة بين الرجل والمرأة في سيارة الأجرة».

القوانين أثارت غضب المدنيين، الذين رأوا في قوانين سواعد الخير الأخيرة؛ أنها محاولة لتطبيق أحكام وقوانين داعش على المدنيين في إدلب، وذلك عقب استقرار المحافظة وتخلصها من القصف العشوائي الذي كان يطالها منذ عدة أشهر.

ويروي أهالي مدينة إدلب معاناتهم والمضايقات المتكررة التي يتعرضون لها من جراء القوانين التي تصدر عما يسمى بـ «منظمة سواعد الخير» التابعة لهيئة تحرير الشام في مدينة إدلب.

«خالد» أحد أهالي مدينة إدلب، قال لـزيتون: «لا تتوقف سواعد الخير عن إرهاق المدنيين من كافة الاتجاهات، فتارةً تصدر قوانين، وتارةً تصدر الضرائب من جيبونا، وتارةً تقمع المظاهرات».

وأضاف: «إن هذه القوانين إن طبقت ستجعل نهاية إدلب ليست ببعيدة، وذلك لأنها تصب في صالح النظام السوري والدول المساندة له، إذ أنها تظهر أن إدلب تحت حكم داعشي باسم آخر، أعجب من هيئة تحرير الشام التي تدعي محاربتها لداعش وهي من يساند جهاز حسبتها في تطبيق قوانين وأحكام داعش، فإن كانت تحرير الشام تتفق مع أحكام حسبتها فلماذا تحارب داعش، أم أن هذه القوانين مجرد وسيلة لتحصيل ضرائب جديدة وضخمة لتغذية بطون أمرائها».

سندريلا من جديد في دمشق.. والأمن السوري يبحث عن صاحب الحذاء

إحدى سيارات النقل في المشروع الجديد - مجلس محافظة حلب

تداول ناشطون معارضون لنظام الأسد، على مواقع التواصل الاجتماعي، قيام أحد طلاب جامعة دمشق بالدوس على صورة بشار الأسد، وتوجيهه رسالة لكل أحرار الثورة السورية، يحيي فيها الثورة ويتحدى نظام الأسد، وقوات أمن الأسد تبحث عن الفاعل من خلال صورة حذائه.

وانتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي صورا، تبين قيام أحد طلاب جامعة دمشق بطرح صورة بشار الأسد أرضا، والدوس عليها، وقام داعس صورة الأسد بترك رسالة مكتوبة بخط اليد، وباللغتين العربية والإنكليزية، مؤرخة بتاريخ ٢ حزيران الجاري، ابتدأ خطابه فيها بتوجيهها إلى من شخص غير معروف يدعى "خالد الدمشقي"، كما توجّه فيها بالكلام إلى كل أحرار الثورة الشرفاء، ثم ابتدأ نصها قائلا: " من داخل كلية الإعلام في جامعة دمشق"، -مظهرا بذلك الكلية التي جرت بها الحادثة- وأكمل فيه: "رح نضل دايسين عليك يا بشار الأسد، عاشت الثورة السورية العظيمة، وعاش الشعب السوري العظيم، عاشت سورية حرة أبية، ويسقط الأسد".

واختتم الرسالة بعبارة "اعزفلي هاللحن"، مشيراً إلى مخاطبه "خالد الدمشقي" على الأرجح، وكتنويه لاستمرار الثورة في نفوس السوريين كلحن لن ينسى أو يتوقف.

كما وتداول ناشطون خبراً عن أن قوات الأمن تقوم بالبحث عن الطالب، من خلال صورة الحذاء الذي ظهر في الصورة، معتمدين بذلك على تسريبات وصلت من طلاب الجامعة بدمشق.

أما التعليقات الأخرى فتناولت وجه التشابه مع قصة "سندريلا" والبحث عن الحذاء، لكن هذه المرة بقصة واقعية في دمشق، والبطل شاب من أحرارها.

يذكر أن أساليب الشعب السوري في التعبير عن حريته، بدأت بذات الطريقة في انطلاقتها الأولى، عام ٢٠١١ ، من خلال إسقاط صور رأس النظام السوري وأبيه، والدوس عليها أو تمزيقها في الأماكن التي كان يسيطر عليها نظام الأسد حينها.

اللافت أن الحادثة أتت بتوقيت يحاول نظام الأسد فيه الظهور بصورة المنتصر، عبر إعلامه، وبأنه قضى على ثورة الحرية، وأنهى الفكرة في نفوس الشعب السوري، وأن أهالي سوريا من الذين يسيطر عليهم بقواته، لا يريدون سوى الأمن والأمان، وأنهم تراجعوا عن مطالبتهم بالحرية.

"سنعيدها من خاطفيها".. التجمع الشعبي للحراك الثوري

بهدف حفظ مسار الثورة وبلورة أهدافها تأسس التجمع الشعبي الثوري في الشهر السادس من عام 2013، على يد الناشط والمحامي "عبد الناصر ملص" الذي توفي في مدينة الريحانية التركية في الثالث من كانون الأول من العام الماضي.

ورغم سيطرة العسكر في وقت مبكر على المشهد العام في المناطق المحررة إلا أن الخوف من انحراف بوصلة الثورة عن خطها المدني والديمقراطي دفع بمؤسسي التجمع الشعبي الثوري إلى أخذه خطوة تشكيل التجمع والتي كانت سباقة في وقتها وتشكيله من خلال ضم النشطاء والمثقفين والحقوقيين القانعين بمبادئ الثورة وأهدافها.

تعرض التجمع فيما بعد إلى التضييق عليه ما دفعه لتجميد نشاطه ووقفه، مع محاولات لم يكتب لها النجاح لتفعيله في بعض الفترات السابقة، وما يزال التجمع في حالة من الكمون بانتظار فرصة لإعادة نشاطه الذي تأثر بشدة بعد رحيل مؤسسه ملص.

بشار الخالد

يعرف أبناء التجمع الشعبي للحراك الثوري تجمعهم بأنه مشروع ضم مجموعة من النشطاء والمثقفين والحقوقيين والإعلاميين، الذين اتفقوا على تفعيل الحراك الشعبي الثوري، ضمن مبادئ وأهداف الثورة السورية.

أحد مؤسسي التجمع الشعبي للحراك الثوري "محمد كامل منديل" تحدث لزيتون عن مرحلة تأسيس التجمع بقوله:

"بدأ التجمع كردة فعل على الترهلات التي بدأت تجتاح الثورة، والخوف من الدخول بمراحل متأزمة دعانا للتفكير المسبق بنتائج التطورات التي دخلت الساحة الثورية، من بدء تأسيس أحزاب سياسية سلطوية، وإدخال المال الفاسد عن طريق بعض المرتزقة، وإنشاء مؤسسات تخدم مصالح تلك الأحزاب، فكان لابد من إيجاد تجمع لطرح كل هذه الأفكار وإيجاد الحلول الإسعافية والمناسبة لتلك المرحلة".

"سنعيدها من خاطفيها" شعار انطلق منه مؤسسو التجمع كدستور مصغر لعملهم، فاستدعوا زملاءهم في النشاط الثوري بالمدينة من الحرس القديم للثورة، حسب وصف "منديل"، والذي تابع قائلاً:

"تم إنشاء قاعدة صلبة تضم الأعضاء المؤسسين، لوضع النظام والأهداف الآنية والمستقبلية، وكان أول هدف للتجمع هو إعادة تجميع الفعاليات والقوى الثورية السباقة في الحراك الثوري، والتي لم تحيد عن البوصلة الثورية، ضمن جسم واحد يقود الحراك الثوري".

هدفه وهيكليته

منذ أن بدأت أولى المؤشرات على بدء حرف البوصلة باتجاهات مغايرة لأهداف الثورة، وضع التجمع الشعبي للحراك الثوري في مدينة معرة النعمان هدفاً رئيسياً له، تمثل في تقويم وقيادة مسار الثورة في المدينة، إلى جانب الأهداف التي تشكل التجمع على أساسها، وهي الاستمرار في الحراك الشعبي السلمي المدني، المناهض للنظام والعنف والتطرف أيا كان من يمارسه، وإسقاط النظام السوري وجميع أركانه ورموزه، وتشكيل محاكمة شعبية مدنية لمحاسبة كل من ارتكب جرائم حرب ضد الشعب السوري، وذلك وفقاً لما صرح به أحد مؤسسي التجمع الشعبي للحراك الثوري "زياد الآمنة" لزيتون.

وأضاف "آمنة": "كما يهدف التجمع إلى العمل على بناء جسم ثوري ينبثق عنه مؤسسات مدنية حقيقية متكاملة، تملأ الفراغ الذي تسببت به حملات النظام من تدمير لجميع المؤسسات المدنية، بالإضافة إلى العمل على بث الوعي الفكري والاجتماعي والحقوقي والإنساني، حتى يحقق الانتقال من دولة الاستبداد والفساد والظلم والطغيان والإجرام إلى بناء دولة مدنية ديمقراطية تعددية، دولة القانون والعدالة والحقوق والحريات المدنية والسياسية".

في حين لم يكن لدى التجمع هيكلية تنظيمية مؤسساتية في الفترة الأولى لتشكيله، فتم الاعتماد في العمل والتنظيم والانتساب على المجموعة التأسيسية الأولى فقط، بحسب "منديل"، والذي أضاف: "كنا نؤجل هذه الأمور للمستقبل، ونخطط لترتيبها لاحقاً".

في الدورة الأولى لتأسيس المجالس المحلية في المناطق المحررة، ومارس التجمع دوراً رقابياً على المجلس المحلي وبعض التشكيلات التي نتجت عن الثورة كالمكتب الإغاثي والخدمي في المدينة، وذلك عبر لجنة انبثقت عن التجمع، بالإضافة إلى إنشاء أول مكتب للتجمع، يتمتع بخاصية مميزة كونه يهتم بشهداء الثورة ومعتقليها وعائلاتهم، ونتج عنه تأسيس مدرسة لتعليم أبناء الشهداء والمعتقلين والمصابين في الثورة، بحسب منديل.

نشاطاته

كانت أهم أعمال التجمع قيادة المظاهرات المناهضة للنظام، وإقامة الفعاليات الثورية، ودعوة المنشقين لتأسيس جيش وطني يمضي بأهداف الثورة ويحمي المدنيين، ثم بعد برهة من الزمن أصبح التجمع يقود المظاهرات المناهضة للمتطرفين، إذ قاد التجمع أول مظاهرة ضد التطرف والمتطرفين في عام ٢٠١٣، ووضع بياناً بهذا الخصوص، وفقاً لـ "آمنة".

كما كان للتجمع الدور الأبرز بتأسيس المجلس المحلي في مدينة معرة النعمان، وذلك

تحديات وإصرار

كغيره من التجمعات السياسية في المناطق المحررة، واجه التجمع الشعبي للحراك الثوري في مدينة معرة النعمان صعوبات وتحديات، تنوعت ما بين النظام والفئات المتضررة من نشاط التجمع، فأثرت عليه وأضعفته مؤقتاً، إلا أن إصرار أعضائه كان أقوى.

تعرض أعضاء التجمع لعدة تهديدات شخصية بالاغتيال والخطف من قبل النظام، فضلاً عن القصف الذي استهدف المدينة، وأصيبت فيه زوجة وابنة مؤسس التجمع عبد الناصر ملص، جراء استهداف منزله، بحسب أحد مؤسسي التجمع الشعبي للحراك الثوري "زياد آمنة".

وواجه التجمع منذ مرحلة التأسيس عدة تحديات، بدأت بمحاربة التجمع من قبل متسلقي الثورة، ممن تتعارض مصالحهم الشخصية مع أعمال التجمع، بالإضافة إلى استغلال بعض الجهات لبعض الأسماء الثورية من ضعاف النفوس وسوقها لأجنداتها، فضلاً عن ملاحقة أعضاء التجمع من قبل التيارات الإسلامية بسبب مناهضة التجمع للتطرف والمتطرفين، وأدت هذه الأسباب إلى تراجع دور التجمع ونشاطه، ودخوله في حالة كمون لعدة سنوات، وفقاً لأحد مؤسسي التجمع الشعبي للحراك الثوري "محمد منديل"، مضيفاً:

"مؤخراً وقبل وفاة مؤسس التجمع عبد الناصر ملص، حاولنا الانطلاق من جديد، وقمنا ببناء قاعدة جديدة ضمن غرفة على موقع التواصل الاجتماعي "واتس آب"، تحت عنوان الثورة فكرة، وذلك لإعادة هيكلة التجمع، وعملنا على عدة مواضيع، أهمها رفض تجنيد الأطفال من قبل هيئة تحرير الشام، وأطلقنا بحملات توعية للحد من التجنيد".

وكان آخر مقطع صوتي لمؤسس التجمع، حافزاً لرفاق دربه على المتابعة بعد وفاته، إعادة الروح لتجمعهم كما كان في بداية تأسيسه، بل ربما بتنظيم أعلى، وعزيمة أكبر، فعلى صفحة التجمع الرسمية في فيس بوك تجد اليوم في أعلاها عناوين حديثة بعد انقطاع، تندد بجبهة النصرة وتسخر مما أسمته "المسرحية"، في إشارة إلى الضربة الأمريكية الفرنسية البريطانية، التي استهدفت قواعد عسكرية لقوات النظام في ٧ نيسان الجاري، على أعقاب مجزرة الكيماوي بمدينة دوما في الغوطة الشرقية.

"صحيح أن الثورة مأزومة، لكن النظام وآلة الإجرام العالمية مأزومة أكثر، وهي في مأزق ولاتعرف كيفية الخروج منه"، بهذه الكلمات ترك عبد الناصر ملص آخر رسالة بصوته لأعضاء التجمع الشعبي للحراك الثوري.

رحيل الثائر عبد الناصر ملص

رحل في الثالث من كانون الأول ٢٠١٧ الثائر والمحامي "عبد الناصر ملص" عن عمر يناهز ٥٨ عاماً، إثر ذبحة صدرية في مدينة الريحانية التركية، بعد حياة قضاها بالدفاع عن حرية وحقوق السوريين وثورتهم.

وتناقل النشطاء خبر وفاة "ملص" على وسائل التواصل الاجتماعي بحزن بالغ، واصفينه بالمناضل الذي لم يهادن الظلم والنظام يوماً.

"ملص" وهو محامي سوري من مواليد معرة النعمان عمل في سورية بمهنة الدفاع عن حقوق الناس والمعتقلين لثلاثين عاماً، لتجبره قوات النظام التي اعتقلته لعدة مرات إبان الثورة دون توجيه تهمة له، للجوء إلى تركيا، في غربة قسرية، حيث أقام في مدينة الريحانية، وعمل بمهن مختلفة لتأمين معيشته.

لم يداخله الشك بانتصار ثورة شعبه رغم كل ما تراكم فيها من أخطاء إذ يقول في أحد منشوراته على صفحته الشخصية: "صيرورة الثورات ونواميسها وقوانينها ومنها ثورة الحرية والكرامة ربما تهدأ، ربما تختفي نارها أسفل الكثير من رماد الأخطاء والعثرات، لكنها مستمرة حتى تحقق ما اشتعلت من أجله".

يروي صديقه "جلال العلي السليمان" عن تجربة "ملص" بالسجن قائلاً: "هو الشهيد الذي عاد حياً، قصة عبد الناصر ملص تكاد تكون غريبة ومؤلمة جداً، إذ بعدما قبضت عليه قوات النظام وزجت به في سجونها، تعرض خلال فترة اعتقاله لممارسات تعذيب جعلت سجانيه يرمونه في أرض خالية بعد أن خيّل لهم أنهم توفي، ليتم إنقاذه فيما بعد على يد بعض الأهالي".

تعرض في سجون حلب وإدلب ودمشق، لشتى أنواع التعذيب، ذاق فيها الجوع والألم وتساقطت أسنانه، واستشهد ابنه خلال تغطيته لمعارك الجيش الحر في وادي الضيف بريف المعرة.

يقول صديقه "يسار باريش": "حين خرج من السجن، وعلم باستشهاد ابنه، صلى ركعتين شكراً لله، وهو الذي لم يهادن المستبدين بكل أشكالهم، محذراً من أسلمة الثورة وتطرفها".

ويشغل "ملص" منصب المنسق العام لهيئة الحراك الثورة، وهو عضو مؤسس بالكتلة الوطنية السورية، كما أسس التجمع الشعبي الثوري في مدينة معرة النعمان.

إدلب المعضلة المؤجلة والمحطة الأخيرة للصراع السياسي والعسكري

يقف المشهد العسكري اليوم على مفترق الطرق نحو تشكيل ترتيبات أمنية جديدة، وذلك بعد تواجد مناطق خارج سيطرة النظام أكثر استقرارا بحكم تواجد ضامن عسكري مباشر مثل مناطق شمال وشمال غرب سوريا "الجيش التركي وقوات المعارضة". وفي هذه الأثناء، يتضح من رؤية المشهد السوري أنه متجه نحو تفاهمات جديدة لم تتبلور معالمها بعد، وعنوانها العريض هي تفاهمات أمنية لفتح الطرق الرئيسية بين المدن وخطوط التجارة المحلية والخارجية. وتبدو إدلب وكأنها "المعضلة المؤجلة" حالياً لاعتبارها المحطة الأخيرة في سلسلة إجراءات وتفاهمات لإنهاء الصراع العسكري، ففيها خزان بشري كبير لنازحين من مختلف المناطق السورية، وتوجد فيها قوات مسلحة مناهضة للنظام بما فيها مجموعات متطرفة عصية على الاندماج مع باقي الفصائل، ومنها ما تجذّر في البنى الإدارية والمجتمعية بما له من سيطرة مسلحة كهيئة تحرير الشام.

رائد رزوق

التسويات السياسية وانعكاسها على الواقع الفصائلي

يتكئ الوضع الحالي في محافظة إدلب بمجمله على مخرجات أستانة ٦ وما تم الاتفاق عليه من مناطق خفض التخفيض الرابعة والتي تشمل محافظة إدلب وريفي حماه الجنوبي وحلب الغربي، الاتفاق الذي سمح بحصول كل طرف بشكل ما على ما يريده من أولويات له.

إدلب المحافظة التي خرجت عن سلطة النظام بالكامل منذ آذار ٢٠١٥ باستثناء بلدتي الفوعة وكفريا، تمكنت هيئة تحرير الشام من السيطرة عليها بشكل مطلق بعد معارك مع باقي الفصائل كان أبرزها حركة أحرار الشام الإسلامية، كما تمكنت هيئة تحرير الشام من فرض نفوذها على المؤسسات المدنية في المحافظة ودوائرها الخدمية إما عن طريق القوة أو عن طريق التلويح بها.

وكان اتفاق أستانة قد نص على التأكيد على مكافحة الإرهاب والقضاء على تنظيم داعش وجبهة النصرة، كما أكد على اتخاذ جميع التدابير اللازمة لمواصلة الكفاح ضدها داخل مناطق خفض التصعيد وخارجها. ومع زيادة الحديث عن حل جبهة النصرة في الشمال السوري يعود إلى الواقع الاستحقاق الذي فرضه الاتفاق على الضامن التركي في مكافحة جبهة النصرة من إدلب، وهو ما لم يظهر حتى الآن ولا سيما في دخول القوات التركية إلى مناطق تمركزها على أطراف محافظة إدلب دون الصدام مع جبهة النصرة إن لم يكن بحمايتها.

كما يقول المراقبون أن الذي قام بتطبيق بنود أستانة بالانسحاب من مناطق شرق السكة هو جبهة النصرة ذاتها، وهي المسيطرة بشكل رئيسي على تلك المناطق، وذلك لصالح قوات النظام التي واصلت تقدمها إلى مناطق غير مشمولة بالاتفاق حتى وصلت إلى قريتي تل السلطان وتل الطوقان شرقي سراقب.

ويؤكد المراقبون أن الجانب التركي لا يرغب بالصدام مع جبهة النصرة لكنه ليس مستعداً أيضاً لتحمل تكلفتها، ومن هنا جاء تشكيل لما يعرف بالجبهة الوطنية للتحرير والمشكلة من بعض الفصائل المعتدلة كفيلق الشام، بهدف حماية اتفاق أستانة وبداية التفاوض حول مستقبل جبهة النصرة.

> وتبدي جبهة النصرة كمعظم الجماعات الإسلامية مرونة كبيرة في التعامل مع الأطراف الدولية بعكس طبيعتها في الداخل مع الأهالي، وهي تدرك حاجة بعض الأطراف الدولية إليها وإلى الخدمات التي يمكن أن تقدمها إلى تلك الأطراف، وهو ما يؤجل في حلها نوعا ما بحسب المراقبون.

والحال كذلك فمن مصلحة من أن تخلط الأوراق مجدداً ليعود القصف إلى محافظة إدلب، ولا سيما بعد مجزرة زردنا، وما تبعها من اشتباكات على أطراف بلدة الفوعة وعودة القصف الجوي على المنطقة، يقودنا السؤال إلى الحادثة الأخيرة التي جرت في كفرهند بريف سلقين، والتي قالت جبهة النصرة أنها تمكنت من قتل واعتقال مجموعة تتبع لداعش في الأسبوع الماضي، لتعود مجموعة قالت أنها تابعة لتنظيم داعش في ولاية إدلب لاختطاف عدد من منتسبي جبهة النصرة وجيش إدلب الحر، وذلك في ٩ أيار الماضي، هددت بإعدامهم إن لم يتم إطلاق سراح قياديين ممن تم أسرهم في عملية رد الطغيان في أواخر شباط الماضي الذي قامت به بعض الفصائل المعارضة لم تكن جبهة النصرة إحداها.

> ظهور الخلايا النائمة لداعش في هذا الوقت في إدلب قد يكون لكسر حالة الهدوء التي يعيشها الأهالي في المحافظة، وخلط أوراق التفاهمات الدولية التي تمت سابقاً، من قبل أطراف متضررين من هذه الحالة، وخصوصاً أن هناك مناطق معروفة بانتساب أعداد من مقاتليها سابقاً لتنظيم داعش وجند الأقصى وحالياً حراس الدين. ظهر التشكيل

حراس الدين

في ٩ كانون الثاني من العام الحالي، بعد ما شهدته صفوف جبهة النصرة من انشقاقات واعتقالات طالت شرعيي لديها وقياديين منهم أبو جليبيب الأردني وسامي العريدي المتشددين في جبهة النصرة والمناصرين لتنظيم القاعدة بقوة، وضم التشكيل بعضاً من الفصائل المنشقة عن هيئة تحرير الشام كجند الملاحم وجيش البادية وغيرهم.

ويوضح الاتفاق الذي أنجزته لجنة الحل برئاسة أبو كريم مدى التقارب والانسجام بين كلا من الهيئة وحراس الدين، وكانت اللجنة قد جمعت بين الجولاني وأبو همام الشامي ممثلاً عن المتشددين توصلت من خلاله بحسب بعض المصادر إلى عدم تشكيل مناطق نفوذ أو مقرات من قبل حراس الدين فيما تقوم هيئة تحرير الشام بتأمين أماكن لهم، كما يقضي بعدم قيام حراس الدين بإضعاف الهيئة أو منافستها.

مؤشرات ترجح حل جبهة النصرة

يشير بدء الحديث عن تشكيل الجبهة الوطنية للتحرير إلى سعي الطرف التركي الراعي لهذا الجيش إلى توفير بديل محتمل عن الفراغ الحاصل بعد حل جبهة النصرة، وهو ما يبقى مرهونا ومحكوما بالظروف.

كما يبدو أن الانشقاقات الكبيرة التي حدثت في صفوف جبهة النصرة أثرت بشكل كبير على هيبة النصرة العسكرية، كما بات واضحاً عدم تقبل الأهالي إلى سلوكيات النصرة وأخطائها، وميلهم إلى جانب جبهة تحرير سوريا في قتالها الأخير مع النصرة.

ويرى محللون أن العجلة التي قامت بها النصرة في تشكيل مجلس مدينة إدلب مؤخراً مصدره شعور النصرة بالخوف من خروج إدارة المدن في المحافظة من يدها، في ظل أوضاع أمنية تدفع الأهالي إلى الضغط عليها وخصوصا في قطاع الخدمات المتردي.

واستكمال نقاط المراقبة من قبل الجانبين التركي والروسي على أطراف المحافظة يفرض الانتقال إلى الخطوة التالية في مكافحة جبهة النصرة المصنفة على قائمة الإرهاب الدولي.

مسؤولية النصرة عن تردي الوضع العسكري

استطاعت تحرير الشام خلال الأعوام السابقة سلب قوة جميع الفصائل التي تقاسمها السيطرة في الشمال السوري لا سيما إدلب، وذلك بعد سطوها على لأسلحة الثقيلة ومستودعات الأسلحة لتمتلك أكبر قوة عسكرية بين الفصائل.
هذه القوة تضعها أمام مسؤولية حماية المدنيين من أي تقدم من قبل النظام أو حتى تنظيم داعش، على اعتبارها السلطة الوحيدة المسيطرة على إدلب.

ومع كل حرب تعلنها الهيئة على فصيل ما؛ كانت تتذرع في مصلحة الساحة والجهاد وحفظ الثورة من الضياع بسبب المفسدين على حد تعبيرها، كما اتهمت الهيئة معظم الفصائل بالعمالة واتباع الغرب والاتفاق على بيع البلاد، في إشارة إلى مؤتمر أستانة الذي ترعاه الدول الضامنة روسيا وإيران وتركيا.

بعد إنهاء حركة أحرار الشام بشكل شبه كامل في إدلب، حصنت هيئة تحرير الشام مواقعها في مطار أبو ضهور العسكري وبلدة سنجار بريف إدلب الشرقي، ومنعت الفصائل الأخرى من التقدم نحو تلك المناطق والقرى والبلدات المجاورة لها، لكن حين تقدم النظام السوري مدعوما بميليشيات أجنبية، دعت هيئة تحرير الشام في بيان مفاجئ جميع الفصائل بالالتحاق بالمعارك الدائرة على جبهتي سنجار وأبو ضهور، ومن ضمنها الفصائل التي حاربتها سابقاً كالفرقة ١٣، وبعد وصول بعض الفصائل لميدان المعركة، سحبت هيئة تحرير الشام عناصرها وقواتها من سلاح ثقيل وخفيف، وتركت الفصائل الأخرى تلقى حتفها، كما منعت تقدم بعض المجموعات الراغبة في قتال قوات النظام من الوصول إلى تلك الجبهات بحجة التخطيط لعمل عسكري من قبلها.

وبحسب ناشطين ومحللين عسكريين، فإن تحرير الشام كانت قادرة على منع تقدم النظام لو وضعت ثقلها العسكري ضمن تلك المعركة، لكنها طبقت مقررات مؤتمر أستانة، وبذات الوقت أرادت إنهاء وإضعاف بعض الفصائل العسكرية وبذلك تضمن إصابة هدفين بطلقة واحدة.

> أخلت الهيئة مسؤوليتها عن التراجع، وحملت فصائل الجيش الحر المشاركة في مؤتمر أستانة أسباب الانسحاب، متذرعة بأنها لم تبارك أستانة ومناطق خفض التصعيد ولم تسلم إحداثيات مقرات الفصائل للدول الغربية.

ولا تزال تحرير الشام تنفي تطبيقها لمؤتمر أستانة، حتى بعد حمايتها ومرافقة قواتها للأرتال التركية، وتدرك هيئة تحرير الشام اليوم أنها بين فكي كماشة، أحدهما التشكيل العسكري الجديد الذي التحق به عدد من الفصائل أهمها فيلق الشام، والآخر تخلي تركيا عنها في أي وقت تريد.

هيئة تحرير الشام واختلاق المعارك

قبل أشهر من الآن شهدت محافظة إدلب هدوءً شبه تام من القصف الذي كانت تشهده إضافة إلى توقف تقدم النظام وحلفائه نحو إدلب، في هذه الأثناء اعتبر أهالي إدلب أنفسهم غير ملزمين بتسليم السلطة ضمن المحافظة إلى هيئة تحرير الشام، ذلك لوجود الأمن من القصف وتقدم النظام.

ويرى البعض أنه وبعد عدة انتقادات وحملات موجهة ضد هيئة تحرير الشام وضد حكومتها "الإنقاذ"، كان لا بد للهيئة من اختلاق المعارك الشبه وهمية لتأكيد حاجة ومبرر وجودها، ولإقناع الأهالي بأنها الوحيدة القادرة على حمايتهم من تقدم النظام أو من الخلايا النائمة التي بدأت تظهر مجدداً بريف المحافظة.

في يوم الأحد ١٠ حزيران اندلعت اشتباكات دامية بين مقاتلين من هيئة تحرير الشام وعناصر موالين للنظام في بلدتي كفريا والفوعة في ريف إدلب، ووفق ما أفاد به ناشطون فإن مقاتلي الهيئة بدأوا في وقت متأخر بقصف البلدتين بكثافة قبل أن يبادروا إلى اقتحامهما والاشتباك مع المسلحين المحليين، وأسفر الهجوم عن مقتل ستة مقاتلين من الموالين للنظام مقابل إخراج ثلاثة من الهيئة، ويعد هذا الهجوم هو الأعنف على البلدتين منذ نحو ثلاث سنوات.

وتساءل ناشطون عن معنى توقيت الهجوم، ففي الوقت الذي كان بإمكان قصف كفريا والفوعة من قبل الفصائل الأخرى، كانت تحرير الشام تمنع أي فصيل من التقدم نحو البلدتين، متهمين الهيئة بتأمين الحماية الكاملة للبلدتين من أي تقدم أو اجتياح، فضلاً عن مرافقتها للمساعدات الإنسانية التي تدخل إليها عن طريق معبر باب الهوى الحدودي مع تركيا.

وذكر الناشط "رأفت الناظم" من ريف إدلب لزيتون: أن هيئة تحرير الشام تسعى للهيمنة على المحافظة بشكل دائم، لكن في أيام السلم لم يكن لها دور سوى ملاحقة المعارضين الذين ينظمون الحملات والمظاهرات ضدها، إضافة إلى المضايقات التي يمارسها جهاز الحسبة التابع لها على المدنيين.

> وسيلتها في السيطرة الدائمة يكمن باختلاق معارك جديدة تعيد تمسك الأهالي بها باعتبارها حامية إدلب من أي عدوان متوقع من قبل النظام، إضافة إلى خوف الأهالي من عودة القصف على قراهم ومدنهم، وانشغالهم عن هيمنة تحرير الشام على مفاصل المحافظة والاستفادة من مواردها، والخضوع لفرض الضرائب والغرامات المالية، وسن قوانين خاصة بحسبتها.

وكان من المقرر إجلاء خمسة آلاف من سكان بلدتي الفوعة وكفريا خلال الشهر الماضي، مقابل إخراج مقاتلين من هيئة تحرير الشام من جنوب دمشق، لكن عملية الإجلاء اقتصرت على الحالات الطبية فقط.

محاولات الهيئة تغيير صورتها عبر مجلس مدينة إدلب الجديد

كعادتها، ومنذ سيطرتها على محافظة إدلب أواخر تموز من العام الماضي ٢٠١٧، تعمد هيئة تحرير الشام لتشكيل مؤسسات وإدارات كواجهات مدنية لها، ابتداءً بالإدارة المدنية للخدمات وليس انتهاءً بمجلس مدينة إدلب المشكل مؤخراً من قبل لجان ومخاتير أحياء مدينة إدلب المعيّنين من قبلها، مروراً بما يسمى حكومة الإنقاذ.

ففي الرابع من حزيران الجاري، أجريت عملية التصويت لتشكيل مجلس مدينة إدلب، وذلك بعد مرور سبعة أشهر على المدينة دون وجود مجلس لها، عقب اقتحام هيئة تحرير الشام للمجلس السابق في أواخر آب الماضي، وإغلاقه والاستيلاء على كافة المؤسسات المدنية في مدينة إدلب.

وترشح لعضوية المجلس أربعون مرشحاً بينهم ٤ نساء، وتم اختيار ٢٥ مرشحاً منهم لشغل منصب عضوية المجلس، وذلك من قبل اثنين وتسعين ناخباً من لجان الأحياء ومخاتير المدينة الذين قاموا بالتصويت، وفقاً لما نشرته ما تسمى بـ حكومة الإنقاذ على موقعها الرسمي، والتي يتبع لها مجلس مدينة إدلب الجديد، فيما تتبع حكومة الإنقاذ بدورها لهيئة تحرير الشام.

وفي أولى بياناته، أصدر مجلس مدينة إدلب عقب تشكيله بيوم واحد، بياناً أكّد فيه أنّه مجلس مدني مستقل، ولا يتبع لأي جهة سياسية أو عسكرية، مشيراً إلى أنّ له الحق في التنسيق والتواصل مع من يراه مناسباً داخلياً وخارجياً للإشراف على تنظيم كافة المفاصل، بما يخدم تأمين الخدمات وكافة الاحتياجات التي تمس حياة المواطنين في إدلب، وفقاً لنص البيان.

موقف الأهالي من تشكيل المجلس

لم يلق تشكيل مجلس مدينة في إدلب أي صدى لدى الأهالي الذين سئموا من تغيير الأسماء والإبقاء على الجهات ذاتها، معتبرين أن ما تقوم هيئة تحرير الشام هي لذر الرماد في عيون المجتمع الدولي دون أي اهتمام بمصلحة المواطن وخدمته.

ويرى الناشط "حازم باكير" أن الهيئة تحاول من خلال تشكيل مجلس لمدينة إدلب أن تبيّض صورتها عبر المجالس المدنية، ويستبعد أن تتلقى هذه المجالس أي دعم خارجي بسبب علاقتها مع هيئة تحرير الشام، مؤكداً أن مصيرها الفشل كما حدث مع حكومة الإنقاذ التي تم عزلها حتى من قبل الأهالي.

ويوضح باكير أن المجلس يمكن أن يستمر لبعض الوقت بسبب تلقيه دعما من الهيئة، وذلك من خلال إيرادات المؤسسات الخدمية والمعابر والضرائب التي تفرضها على الأهالي.

الناشط "أيمن حميدو" من مدينة كفرنبل قال لقد تم تشكيل المجلس بعيدا عن الضجيج لكيلا يتم حرقه وكشف تبعيته لهيئة تحرير الشام كما حدث مع حكومة الانقاذ، ولكي يكون بديلا عن حكومة الانقاذ التي فشلت في ادارة المحافظة.

> ويضيف حميدو أن مصير المجلس كمصير حكومة الانقاذ، وكل من يعمل معهما سيحرق اعلاميا سواء من الأهالي أو من المجتمع الدولي بسبب تصنيف هيئة تحرير الشام كجماعة إرهابية.

ويبرر "حميدو" أسباب فشل المجلس بعدم إشراك الحراك الثوري والمجتمع المدني بالتشكيل، كما استأثروا بكل شيء لصالح هيئة تحرير الشام، إضافة إلى فرض الضرائب على الكهرباء القادمة من مناطق النظام، وفرض الضرائب على المياه والأتاوات على المنظمات المدنية واحتكار المواد المستجلبة من مناطق النظام كالغاز والسكر، وسلب إيرادات المؤسسات الخدمية كالهاتف والدوائر العقارية.

ويرى "محمود الأسعد" من أهالي مدينة بنش إلى أن مجلس المدينة هو عبارة عن مجلس قام بتشكيله حكومة الإنقاذ الفاقدة للشرعية، وهو أمر لا يخفى على أحد كيف تم تشكيلها وسيطرتها على المؤسسات المدنية والخدمية في المحافظة، وقد قامت بتشكيل هذا المجلس ليكون واجهة مدنية ولكن الجميع يعلم أن هذا المجلس فاقد للشرعية ويعود السبب إلى ما قامت به هيئة تحرير الشام من حل المجلس الشرعي والمنتخب القديم.

كما يعتبر "الأسعد" أن ما قامت به حكومة الإنقاذ ومن ورائها هيئة تحرير الشام من إجراء الانتخابات لمجلس المدينة الجديد هو مسرحية مكشوفة للجميع وقد تمت مقاطعتها بشكل واضح حتى من وسائل الإعلام.

ويؤكد "الأسعد" على أن مصير هذا المجلس الفشل وذلك لعدم رغبة أحد بالتعاون معه سواء من الأهالي في المدينة أو من المؤسسات المدنية العاملة أو حتى من المنظمات الداعمة الدولية.

انتهاء صلاحية حكومة الإنقاذ

واجهت حكومة الإنقاذ منذ اليوم الأول من إعلانها في ٢ تشرين الثاني ٢٠١٧، انتقادات واسعة أهمها تبعيتها لفصيل عسكري مسيطر على محافظة إدلب وهو هيئة تحرير الشام، التي أنهت وجود باقي الفصائل بالقوة، كما قامت بعد وقت قصير بالاستيلاء على المؤسسات الخدمية وسلبها من المجالس المحلية في المحافظة، ما أدى إلى تحجيم وإنهاء دور هذه المجالس، بالإضافة إلى تساؤلات حول مصير حكومة الإنقاذ، في ظل استمرار عمل الحكومة السورية المؤقتة، والأوضاع التي تعيشها المنطقة.

وقال عضو الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية "محمد يحيى مكتبي" في تصريح له للقدس العربي "أن تشكيل حكومة ثانية، تدير المناطق المحررة في ظل وجود حكومة مؤقتة ما هو إلا بسبب "ضحالة في التفكير وقصر في النظر"، كما صرح نائب رئيس الحكومة المؤقتة "أكرم طعمة" بأن حكومة الإنقاذ لن تستطيع الحصول على الشرعية، وستكون مقيدة غير قابلة للتوسع بسبب هيمنة تحرير الشام عليها.

وأصدرت الهيئة السياسية في حلب، بياناً عقبت فيه على تسمية رئيس الحكومة، وقالت فيه: "إن حكومة الإنقاذ التي أعلنت عنها اللجنة التأسيسية للمؤتمر السوري العام، جاءت خلافاً لمخرجات ورشات العمل المنبثقة عن المؤتمر نفسه، وهي لا تحظى بقبول شعبي أو اعتراف دولي"، واصفةً إياها بحكومة مغالبة ستزيد معاناة الشعب السوري وتشتته بين الحكومتين.

من جانبها أصدرت المجالس المحلية في عدة مدن وبلدات بريف إدلب في ١٩ آذار الماضي، بيانات أعلنوا فيها عدم الاعتراف بحكومة الإنقاذ أو أي حكومة تتبع لجهة عسكرية، استقلالية جميع المؤسسات العاملة فيها كمؤسسات مدنية وعدم تبعيتها أي جهة عسكرية، من بينها مدينتي معرة النعمان وخان شيخون وبلدة جرجناز.

ذاكرة خارقة وآلة حاسبة بشرية.. إبداع طفل سوري في إدلب

الطفل محمد - بنش - زيتون

في حالة فريدة ونادرة لا تسخو بها الحياة كثيراً على البشر، يبدو الطفل الذي عاش معظم سنين عمره التسع في ظل الحرب طفرة في عبقريته وطريقة رؤيته للرياضيات والعمليات الحسابية المعقدة على البالغين.

ورغم ما تفاجئنا به وسائل التواصل الاجتماعي وأخبار وسائل الإعلام عن حالات التفوق في صفوف اللاجئين السوريين في دول اللجوء، الذين حملوا مع حقائبهم المتعبة خامات إبداعية مميزة، إلا أن حالة الطفل محمد الأسمر تعتبر استثناءً لافتاً يستحق الوقوف عنده.

أسامة الشامي

«محمد عزيز الأسمر» طفل سوري في التاسعة من عمره، من مدينة «بنش» شمال إدلب، حالة إبداعية طفولية مميزة وملفتة، يستطيع محمد أن يجيب على عمليات ضرب أرقام ثلاثية من فئة المئات، بوقت قصير جدا وكأنه آلة حاسبة، مستخدما طرقاً خوارزمية ذهنية، غير مفهومة القواعد للبالغين.

كما بإمكانه الوصول لحل عمليات حسابية معقدة تفوق عمره بذكاء ووقت قياسي، إضافة لامتلاكه ذاكرة مدهشة بحيث يحتفظ بمعلومات ضخمة من ضمنها حفظه لتسعة أجزاء من القرآن منذ سن السادسة، مع أرقام الآيات والصفحات ومواضعها بالصفحة، بطريقة مذهلة تنم عن قوة عقلية عالية.

بدأت قصة عشق محمد أو «الآلة الحاسبة الطفولية» كما يلقبه الناس للأرقام والرياضيات منذ سن الرابعة، كما تروي والدته المعلمة «باسمة حمدون»: «حفظ جدول الضرب في الرابعة بعد سؤالي عن معنى عملية الضرب، فأعطيته مثالا ٦×٧ وشرحت كيف نكرر الستة لسبع مرات أو السبعة لست مرات، وهو باجتهاد منه بدأ يضرب حتى خرج من جدول الضرب التقليدي لنتائج تصل للمليارات».

كانت بداية محمد توحي بالإبداع الكامن منذ الصغر، وذلك لتوجهه نحو القضايا العلمية الأصعب والتي لا تناسب عمره، فاختار أن ينطلق من وصف «ديل كارنيجي» لطريق الإبداع عندما قال: «قم بالأعمال الصعبة أولاً وسوف تحل السهلة نفسها»، كما أتقن الأحرف العربية والإنكليزية كتابة وقراءة في وقت قصير ومبكر، وفقاً لوالدة محمد.

أما عن كيفية اكتشاف موهبة محمد فيقول والده الرسام «عزيز الأسمر»: «بعد تعلمه الأحرف والأرقام بدأ محمد يقرأ أرقام لوحات السيارات والشاخصات المرورية التي تصادفنا في كل مرة نخرج فيها بسيارتنا، ليعيدها على مسامعنا بعد أن نكون قد قطعنا مسافة لا بأس بها، ومر عليها بعض الوقت، وشيئاً فشيئاً بدأنا نلاحظ أن كل ما يراه ويقرأه تنطبع صورته في ذهنه، ما جعلنا نحاول التركيز على كل ما نراه، ونقوم بتدوين بعض أرقام اللوحات دون أن ينتبه لذلك لنتأكد من موهبته».

كل ما له صلة بالأرقام، لا يمكن له أن يمر على محمد بشكل طبيعي أو تقليدي، بالإضافة إلى أن تسليته الوحيدة حين يشعر بالضجر كانت العدّ، والذي يمكن أن يطول لساعات ويصل فيه محمد إلى أرقام من فئة الآلاف، ما يتسبب في بعض الأحيان لتذمر من حوله، بحسب والد محمد.

«أحب الرياضيات والأرقام جداً، وأحب أن أتابع تعليمي وأن أصبح معلم رياضيات، وأكره الحرب وكل أصوات الضجيج، وأتمنى أن تنتهي بسرعة»، هكذا قال المبدع الصغير لزيتون، والذي يصرّ على متابعة سيره في الطريق التي اختارها، وتطوير نفسه في مجال الرياضيات ومواصلة حفظ القرآن.

ويظهر وعي محمد وشغفه للتعلّم، من خلال حلمه المستقبلي بأن يصبح معلماً، لما ألحقته الحرب من ضرر بقطاع التعليم، إذ يفضل محمد أن يكون معلم رياضيات على أن يكون عالماً، وذلك لأن الوضع الحالي لا يحتاج إلى علماء، وإنما يحتاج لمعلمين يعلمون الأطفال الذين فقدوا تعليمهم، على حد قوله.

بينما ترى والدة محمد بأن طفلها مختلف عن معظم الأطفال وحتى عن إخوته، إذ لا تغريه الهدايا أو غيرها من وسائل إغراء الأطفال، ولا يثنيه شيء عن التعلّم، كما ترى فيه شاباً صغيراً ناضجاً.

ويستدل والد محمد على وعي ابنه من خلال بعض ردوده على مواقف محددة، كالاحتفال بعيد ميلاد محمد، والذي لا يأبه به محمد على عكس بقية الأطفال، ويرد على احتفالهم به بقوله: «شو يعني عيد ميلادي؟! كبرت سنة.. كل الناس كبرت سنة معي، أنا ما كبرت لحالي».

ويشعر الأسمر الأب بالغصة والحسرة على واقع سوريا الحالي بشكل عام والمناطق المحررة بشكل خاص، إذ لا يوجد فيها أخصائيين يوجهون قدرات ابنه وأمثاله من الأطفال المتميزين في الداخل السوري، متأملاً أن تُهيّأ لهم السبل لوضعهم على الطريق الصحيح ومتابعتهم بحسب مواهبهم وقدراتهم.

ولا يقف إبداع محمد عند الأرقام والحفظ فقط، بل يتعداه إلى موهبة بالرسم والخط، فضلاً عن لعبة الشطرنج التي يتقنها ويتفوق على العديد من لاعبيها الكبار، ربما ساعده في ذلك انتمائه لعائلة جمعت ما بين الفن والموسيقى لدى أعمامه، والرياضة لدى أخواله الحائزين على بطولة الجمهورية للناشئين والشباب بلعبة الشطرنج، فضلاً عن والده الرسام والخطاط، ووالدته المعلمة المدرسية.

يقول «وليم شكسبير»:

«البعض يولد عظيما، والبعض يجتهد فيكون عظيما، والبعض يسبب مشقة عظيمة لهؤلاء».

تلخص هذه المقولة قصة الطفل المبدع محمد وأمثاله من مبدعي ومفكري هذا البلد، حيث أن محمد ولد مبدعا، ويجتهد ليكمل إبداعه، إلا أن قدره أن يعيش في وطن يحارب الإبداع، ويكون أبطال مشهده مشقة عظيمة على مبدعين ومفكرين وعلماء هذا الوطن.

كيف استغلت أسماء الأسد قصة الطفلة التي سجنها والدها في المغارة؟

خاص زيتون

في حادثة هزت المجتمع السوري، في أواخر عام ٢٠٠٧، تم العثور على سمر خميس، التي تحولت إلى «فتاة المغارة»، ذلك نتيجة حبس والدها لها برفقة كلب لمدة ٢٢ عاماً متواصلة داخل أحد الكهوف المجاورة لمنزله الواقع في مدينة كفرتخاريم غربي ادلب، ما جعلها تفقد المهارات «البشرية»، وتصل إلى حالة من «التوحش»، وفق ما وصفها الأطباء بعد خروجها من الكهف عام ٢٠٠٧.

تعود قصة «سمر» إلى عام ١٩٨٥ حيث تزوج والدها من امرأة تدعى ميساء، وبعد ستة أشهر من زواجه أقدم على طلاق زوجته لأسباب عائلية وخلافات زوجية، وكانت زوجته آنذاك حاملاً في شهرها الأول، وبعد ثمانية أشهر أنجبت مطلقته ميساء «سمر»، وبعد سنة ونصف تزوجت أم الطفلة «سمر» وتركتها في حضانة جدتها وعند بلوغها من العمر أربع سنوات أحضرها والدها إلى منزله ووضعها مع أولاده وقامت زوجته بالإشراف عليها، وبعد ثمانية أشهر أعادها لمنزل جدتها بسبب قصور في عقلها وجسمها.

وبقيت بمنزل جدتها حتى بلغ عمرها ست سنوات ومرة ثانية قام بإحضارها لمنزله وحينها رفضت زوجته وضعها ضمن المنزل ومع أولادها واتفق معها على وضعها في مغارة مجاورة لمنزله، برفقة كلب، وكان يدخل لها الطعام بالاشتراك مع زوجته، وبقيت على هذه الحالة حتى ٢٣ تشرين الأول ٢٠٠٧، حيث كشف النقاب عن قضيتها بعد أن أكتشف امرها راعي أغنام رآها ضمن المغارة.

عقب انتشار قصة «سمر» على وسائل الإعلام المحلية، بادرت أسماء الأسد زوجة بشار الأسد إلى زيارة «سمر» في مشفى ابن سينا، ووعدت حينها عبر وسائل الإعلام بمتابعة علاج «سمر» مهما كانت التكلفة، كما تعهدت بنقل سمر الى المشافي الأوروبية ليتم معالجتها نفسياً وجسدياً.

في منتصف عام ٢٠١٥ وبعد سيطرة قوات المعارضة السورية على مدينة جسر الشغور شمال إدلب، وجدت فرق الدفاع المدني آنذاك عدداً من العجزة ومرضى القصور العقلي داخل مأوى العجزة في المدينة، وتم نقلهم إلى مأوى آخر في قرية إسقاط بريف إدلب الشمالي.

القاضي محمد نور حميدي مسؤول الدار في قرية إسقاط قال لـ زيتون حول قضية سمر: «أنشأنا داراً للعجزة في أواخر عام ٢٠١٥ تحت مسمى «مركز بلدة إسقاط لدار العجزة» بريف إدلب الغربي؛ حيث يقوم المركز برعاية العشرات من المسنين والعجزة أكثرهم تم نقلهم من دار العجزة في جسر الشغور عقب سيطرة قوات المعارضة عليها».

وأضاف حميدي: «قصة سمر أثارت ضجة كبرى عبر وسائل الإعلام، وحينها ادعت أسماء الأسد تبني علاج الطفلة، ذلك عبر وسائل الإعلام وضجت الصحف والقنوات التلفزيونية بقصتها، ونالت أسماء في ذلك الحين لقب الوردة الحمراء لإنسانيتها وعطفها على هذه الصغيرة المظلومة».

ويردف القاضي حميدي: «عناية أسماء الأسد أمام الصحف والقنوات التلفزيونية كانت عبارة عن ترويج إنساني إعلامي فقط، حيث أقدمت على رمي «سمر» في أحد دور العجزة في مدينة جسر الشغور بريف إدلب الغربي، دون أن يقدم لها أي نوع من أنواع العلاج الخاص بحالتها، وبعد سيطرة قوات المعارضة على مدينة جسر الشغور، فر موظفو مركز دار العجزة إلى مناطق النظام وتركوا العشرات من العجزة والمعاقين ومن بينهم سمر دون رعاية».

الطفلة سمر - أنترنت

وأكد حميدي في حديثه لـ زيتون: إن المركز يقدم لسمر جميع ما ينقصها من طعام وشراب وعلاج، وأصبح وضعها يتحسن يوما بعد يوم، حيث تعلمت بعض الكلمات، كما تستطيع قضاء بعض من حوائجها بنفسها رغم إعاقتها والتشوهات التي لحقت بها خلال فترة سجنها.

وتعاني «سمر» من ضعف بصر في العين اليمنى مع ضمور خفيف في الأطراف بسبب قلة الحركة، وعلى الرغم من تحسن حالتها الصحية، إلا أنها لا تزال تعاني من اضطرابات نفسية وعصبية وتبدو غير قادرة على الكلام، أو المشي، أو التعبير عن أي حالة شعورية بل تقلد الكلب في صوته وحركاته في معظم تصرفاتها.

رمضان وعيد أول على مهجري الغوطة في إدلب

أحمد فرج

في ٢٢ من آذار الماضي، تم كسر الحصار المفروض على الغوطة منذ أعوام من قبل النظام السوري، وذلك بعد تمكنه من السيطرة عليها من خلال سلسلة من المصالحات والاتفاقيات بين النظام السوري وحليفه الروسي من جانب، وفصائل المعارضة بالغوطة من جانب أخر، لتبدأ عملية تهجير الأهالي من بيوتهم ومدنهم.

الغوطة، التي كان يسكنها نحو ٤٠٠ ألف نسمة، كانت تعاني من نقص حاد في أساسيات الحياة والمواد الغذائية والطبية، واستمر هذا الوضع طوال السنوات الماضية.

أطفال فى ريف إدلب يتسوقون ألبسة العيد - زيتون

وبدأت عملية التهجير من جنوب الغوطة الشرقية، تحديداً في مدينة حرستا، ووصل إلى عربين وحمورية بالقطاع الأوسط، وجوبر ودوما وغيرها، واستمرت الحافلات بنقل المهجرين بالتوافد إلى بلدة قلعة المضيق في ريف حماة، حيث تقع هناك النقطة الصفر، وهي المكان الذي يحط المهجرون رحالهم فيه ثم ينطلقون منه إلى مناطق أخرى لبدء حياة جديدة.

فتحت إدلب وجهة المهجرين أبوابها كاملة، لكل أهالي الغوطة باستثناء دوما، التي كانت وجهة أهلها ريف حلب الشمالي.

وبحسب منسقو الاستجابة فإن إدلب كانت الوجهة الأولى لسكان الغوطة الشرقية، فقد وصل إليها ٥١٥٥٣ نسمة من ريف دمشق، قادمون من حي القدم جنوب دمشق وحرستا وعربين.

وشهد وصول أهالي الغوطة إلى إدلب استقبالاً حافلاً من قبل الفعاليات الشعبية والثورية، اعترافاً بصمودهم الأسطوري وثباتهم، وعمل الأهالي في إدلب وريفها، على تقديم جميع أنواع المساعدات للمهجرين منذ وصولهم، وانطلقت مجموعة من المبادرات الأهلية لتخفيف معاناتهم، وتنوعت هذه المبادرات حيث بدأت بتأمين السكن والأغطية ومن ثم الطعام والخضار وصولاً إلى المعاينة الطبية.

ونشر نشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي صور لافتات وضعت في محال تجارية وبائعي خضار كتب عليها "أهلنا في الغوطة خذوا حاجتكم بالمجان".

وتظهر الصورة لافتة وضعت في محل لبيع الخضار والفواكه، كتب عليها: "أهلنا في الغوطة، تقبلوا منا فواكه وخضروات لكل عائلة تشرفنا مجانا".

عن رمضان هناك

رمضان أول، وعيد أول يمر على مهجري الغوطة بإدلب، تختلط الأحاسيس والأفكار تجاهه، ففيه فرجات أمل لطالما افتقدوها بالحصار، وفيه غصات نفسية أخرى غصتها أرواحهم بالغربة والبعد عن بلادهم، والحنين لأماكن عاشوا فيها كل حياتهم وتركوا فيها كل ذكرياتهم، ثم هجروا وحرموا منها قسرا، ليمر العيد بمشاعر ممزوجة بالألم رغم خلاصهم من الحصار.

"خالد عكاشة" أحد ابناء الغوطة الذين وصلوا لإدلب في الآونة الأخيرة قال لزيتون: "مر رمضان ولم نشعر بأجوائه المعتادة، فقد خسرنا المكان والأقرباء والجيران، وانتقلنا إلى جو جديد علينا، وواقع اجتماعي ومادي قاسي، لأننا خرجنا تاركين كل شيء، أوضاع صعبة، منذ ايام توفي طفلتين من الجفاف والحر بمخيم دير بلوط".

ويضيف عكاشة عن العيد: "أما العيد فلن نستقبله كما ينبغي، فالظروف لا تسمح بالراحة والاحتفال، فإيجار منزلي ٣٥ ألف ليرة لشهر واحد، وأفكر إن كنت سأبقى فيه، والكثير من المشاكل الحياتية التي تنغص علينا إمكانية الفرحة".

ويلجأ الكثير من المهجرين قبيل العيد إلى شراء ألبسة جديدة للأطفالهم كي يمنحوهم فرصة الفرح، فإن كان هذا العيد بالنسبة للكبار عيد حزن فما ذنب الأطفال كما يقول عكاشة.

في حين يغرق بعض المهجرين بتفاصيل ذكرياتهم أيام الحصار مسترجعين أحداثه الموجعة، ومستحضرين سير الأقرباء والأحبة الذين فقدوهم ما ينكد عليهم بهجة الخلاص من الحصار.

يقول "أبو يعقوب الشيخ" أحد مهجري الغوطة، واصفا تلك اللحظات والرمضانات التي عاشوها هناك: "نجونا من محرقة الغوطة، ومن معاناتنا لألم التجويع والقصف، وبعد أن كنا نتناول وننتظر لحظة الموت، فرج الله عنا، لتبدأ معاناة جديدة بتأمين سبل العيش".

ويقارن "الشيخ" ما بين رمضان السابق ورمضانه الحالي مؤكداً أنهم كانوا يفطرون على الماء ورغيف خبز شعير يابس إن وجد، نحن الآن نطبخ كل الطعام"، مضيفاً أنه ما يزال يحلم أن يعود إلى حديقة منزله ليتناول وجبة الإفطار فيها.

يلجأ الكثير من المهجرين قبيل العيد إلى شراء ألبسة جديدة للأطفالهم كي يمنحوهم فرصة الفرح، فإن كان هذا العيد بالنسبة للكبار عيد حزن فما ذنب الأطفال

أما الإعلامي "أبو مارية الشيخ" حمل رمضانه خليط من مشاعر الشوق والوجع، والذي قضاه بعيدا حتى عن أطفاله وزوجته وأهله، بعد أن اضطر للقدوم للشمال، بحكم عمله، كما أوضح لزيتون.

هناك مفارقات كبيرة بين رمضانات الغوطة رمضان الشمال، فمن الناحية الأمنية كان النظام في الغوطة ينتظر صلاة العصر ليبدأ قصفه في هذا الوقت، ويومياً كان هناك شهداء وجرحى، ومن ناحية أخرى هذا التنوع بالطعام هنا بالشمال التي تعتبر مكملات لأجواء رمضان، كانت مفقودة هناك بحسب الناشط "عبد الملك العبود".

وأوضح العبود مقارنا حسب مجال عمله الإغاثي، تفاصيل أكثر، قائلاً:

"في الغوطة كانت إحدى أمنياتنا تأمين حبة فواكه مع صحن الطعام الذي نتعذب كثيرا لتوفيره، أما اليوم فنقوم بتوزيع ١ كيلوغرام من الفاكهة مع كل وجبة طعام، هناك أيضا مادة الخبز التي كانت من أغلى السلع في الغوطة، حيث وصل سعر الرابطة بوزن ٧٠٠ غ إلى ٢٠٠٠ ل.س، أما هنا فإننا نقوم يوميا بتوزيع ربطة خبز وزن ١ كيلوغرام مع كل وجبة طعام وسعرها لا يتجاوز ١٠٠ ل.س".

لكن البعض يرى أن من واجبه أن يحافظ على ثقافة العيد مهما كانت الظروف صعبة ويعمل ما بوسعه لإعادة تفاصيل العيد قدر المستطاع، يشجعه على ذلك رغبته برؤية الابتسامة على وجوه أطفاله.

"نيفين حوتري" إحدى ناشطات الغوطة أخذت طفلتها للسوق وتركتها تشتري لباس العيد وتختار ما يعجبها، لأنه العيد الأول الذي ترى فيه الطفلة أصناف الألبسة والألعاب، سمحت لطفلتها أن تختار بنفسها، حتى تعرف أن في الحياة خيارات، لا فرضاً تفرض، كما اعتادت في حصار الغوطة.

وتضيف "حوتري": "أول رمضان في الشمال يمكن وصفه بأن الجمال لا يكتمل، فبعد عدة سنوات من حصار متفاوت الشدة، نحن أمام سوق مفتوح لكن مهجرين وبعيدين الأهل، رمضان جميل بلمة العائلة، وهذا الشيء افتقدناه لما كسبنا مائدة رمضان هنا".

وعن تجهيزات العيد قالت "حوتري": "لأول عيد منذ سبع سنوات أنا أصنع حلويات العيد بالبيت، رغم توفر الحلو بالأسواق لكي أحافظ على ذكريات تركناها بالغوطة، سأصنع أقراص العيد هنا من جديد".

الخلاص من الحصار كان ثمنه أوجاع الغربة والحنين الذي أثقل القلوب، وظروف معيشية صعبة تعصف بهم في الشمال السوري، هذه حال مهجري الغوطة في الشمال، والذين لا يلاقون خيارات أخرى سوى التأقلم والصبر.

تربية الحمام في إدلب.. مهنة المتاعب و «المراق»

لا تخلو سماء سوريا من أسراب الحمام التي تحوم في مدارات محددة حول منازل أصحابها، الذين يقفون على أسطح المنازل يلوحون ويصفرون لتلك الأسراب محرضين لها بالارتفاع أو الهبوط في أوقات الأصيل أو الضحى.

هي هواية مكروهة لا تخلو من المشاكل والنزاعات، لكنها ذات إدمان وهوس عند أصحابها، ينتابك انطباع مبهم ومنفر حول طقوس ممتهنيها وأجوائهم الخاصة التي روجها لها المجتمع وما أشيع عن أخلاق مرتكبيها في الأعراف والثقافة، لكن لا تخلو تلك الهواية من مزايا نصف الكأس الملآن التي يتغنى بها الحميماتيون.

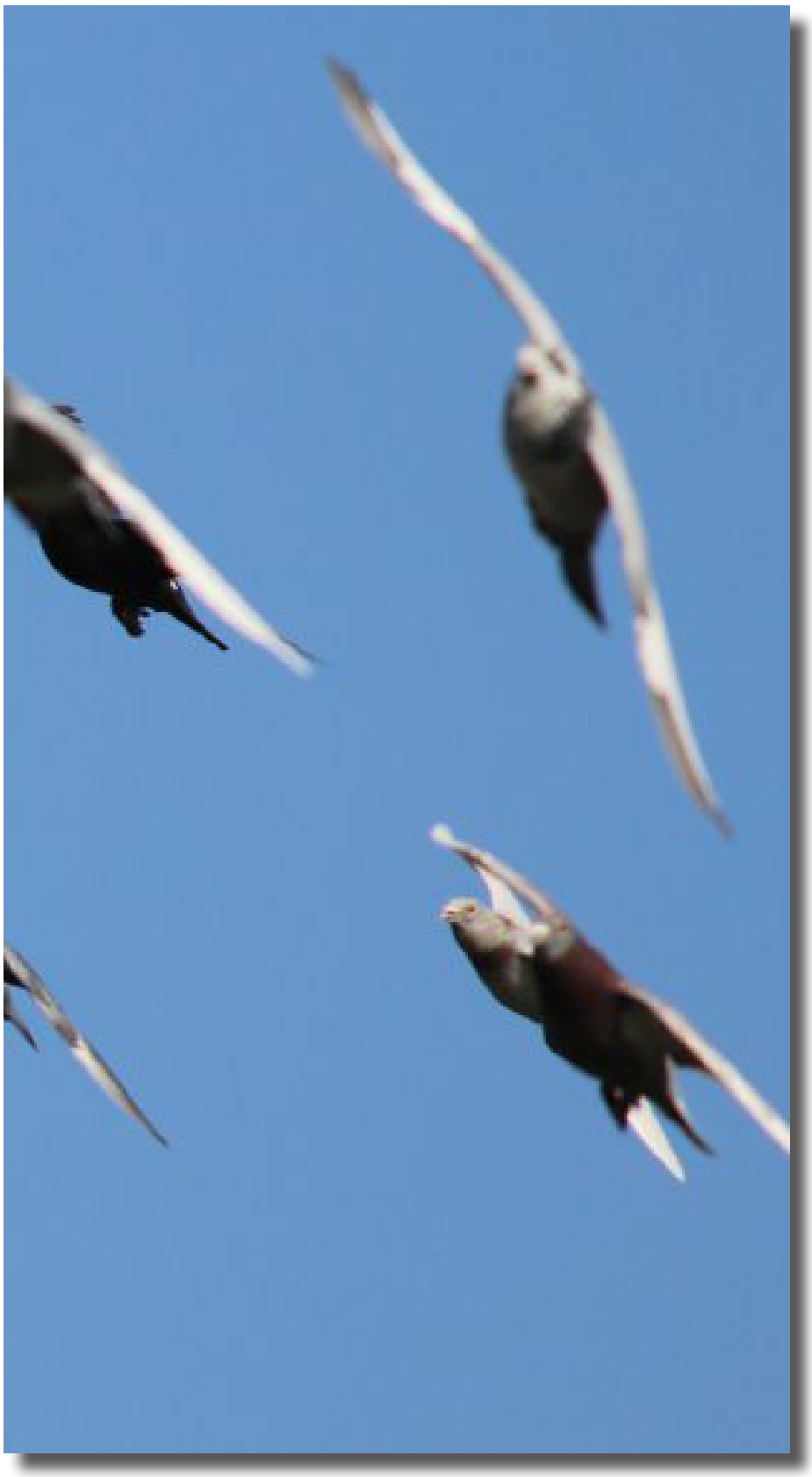

محمد المحمود

ولا يستوي النظر إلى كل مربي الحمام بذات السوية، فهم مختلفون بحسب ما يمارسونه من غايات اقتناء الحمام، فمن يقتني الحمام للزينة والمتعة لا يجد تقاطعا في الاهتمام مع من يمارس هواية كش الحمام والصيد به، كما أنهما يختلفان عمن يربي الحمام بهدف التكاثر والبيع، ورغم تداخل بعض الأصناف من مقتنيي الحمام، إلا أن شهرة سوء الهواية انحصرت في ممارسي كش الحمام على وجه خاص.

«أهل المراق» جماعة من مربي الحمام لا يميلون إلى المشاكل، متعتهم تكمن في تأمل طيورهم وهي تقوم بالتقاط الحب بما لها من ألفة وبما تفرضه من جو هادئ بأصوات هديلها و»برقمتها» وهو صوت الذكر حين يكون في أوج زهوه أو أثناء محاولته الدفاع عن عشه.

تخصص هذه الجماعة وقتا محدداً في يومها لقضائه مع طيورها مع كأس من الشاي أو الأركيلة، إذ يعتبرون هذا الوقت للهدوء والترويح عن النفس بعد عناء النهار والعمل.

أحد مربي الحمام في مدينة إدلب عمران العلي قال لزيتون عن هوسه بمجالسة الحمام: «عندما أصعد إلى السطح وأجلس بين الحمام وأرمي له الذرة، ينتابني شعور بالسعادة، وأبتعد عن العالم بأسره، كما أتخلص من ضغط الحياة والظروف الصعبة التي نمر بها، حتى أنني أنسى القصف والمفخخات وغيرها، كما أنسى تعبي خلال اليوم كاملاً، وأغرق في جمال هذه المخلوقات».

لكن مكمن المتعة مختلف عند أهل الكشات والهادفون إلى الصيد وضم طيور الغير إلى أسرابهم، فعودة السرب إلى «الحبيس» أو قن الحمام سالماً غير ناقص، تثير بهجة صاحبها والتي لا تزيدها سوى عودة السرب جالبا معه طيراً آخر من طيور رفاقه في اللعبة.

> متجاوزاً للأعراف والتقاليد التي لا تسمح بالصفير والضجيج على الأسطحة أو بالإطلالة على منازل الجوار، يقف صاحب الكشة بعصاته التي تنتهي بقطعة قماش ملوحاً بها لسربه المحلق، تترافق حركاته بالعبارات والصفير الذي يتجاوب معه الحمام.

ويلجأ ممارسي هذه الهواية إلى التلويح بحمامة تدعى في مسميات المهنة «الفرفوحة» وتكون عادة أنثى لأقوى ذكور السرب، وهو ما يجعل السرب يعود إلى القن، فحين تصفق «الفرفوحة» بجناحيها يندفع الذكر إلى الهبوط الفوري لقن الحمام أو إلى كتف صاحبه بالقرب من أنثاه ويتبعه السرب كله.

وتعتبر أسراب الحمام في السماء كأنها في معركة بالنسبة لأصحابها، فلطالما ينضم أحد الطيور من أحد الأسراب إلى سرب آخر وينسجم ويهبط معه ليقوم صاحب السرب الرابح بإمساكه وهو ما يشكل غاية المتعة له، هذه الخسارة هي ما يتجنبها أصحاب المهنة، وهو السبب في ملاحقة الحي الشمالي بمدينة إدلب موضحا الصعوبة في تأمين الدواء لبعض أمراض الطيور بسبب الظروف الراهنة.

ونوه «العمر» أن تجارة الحمام كانت قبل الثورة السورية مزدهرة بشكل كبير ولم تكن مقتصرة على الداخل السوري فقط، بل كان لها سوقاً خارجية تصل للدول المجاورة كالعراق ولبنان وغيرها، ولكن المهنة تراجعت بشكل حاد بعد الثورة نتيجة للقصف الذي يهدم البيوت والشظايا والاشتباكات، كما بيعت معظم الطيور إلى سربهم أثناء الطيران وإنزاله فور شعورهم بالخطر حين يتشرذم السرب.

ويوضح «العلي» أن طيران سربه واصطفاق أجنحته وانسجام حركاتها في الجو بجانب بعضها هو مشهد يجعله يشعر بأنه «يملك الدنيا»، كما أن طيرانها بحرية دون قيود بحيوية وكعائلة واحدة تشعره بأنه يشاركهم في ذلك التحليق.

وبابتسامة عريضة يستقبل «العلي» سربه بعد هبوطه كاملاً لم ينقص فردا منه بعد جولة كبيرة، مشيراً إلى أصالة سلالة طيوره، معتبراً أن تلك العودة انتصارا على باقي مربي الحمام في المنطقة، الذين يحاولون جذب طيوره إلى أقفاصهم، من خلال إطلاق طيورهم أثناء تحليق سربه لتصل المناورات بين السربين والمبارزة بين أصحابها إلى أوجها حين تداخل السربين.

يصف مربي الحمام طيورهم بصفات مبالغ فيها تنعكس فيها محبتهم وتعلقهم بتلك الطيور، والتي تقنع الناظر إليها بالوداعة والسلام، لكنهم يتجاوزون تلك الصفات إلى صفات أخرى كما يقول أحد مربي الطيور: «منذ ١٥ عاما وأنا أربي الحمام، والحمام طيرُ حساسُ وذكيُ جداً، يحفظ مكانه والسطح الذي يعيش عليه جيدا ويعود له من مسافات بعيدة جدا، مخلص لعائلته ونبيل، ولذلك فإن المربي حين يقتني طيراً جديدا يقوم بتزويجه من حمامة ليخلف منها فراخاً ويتعلق بهم، وهو ما ينسيه مكانه القديم».

الخارج وهي أفضل أنواع الحمام السوري بسبب حالة النزوح واللجوء التي طرأت على السوريين ولم يعودوا قادرين على الاستمرار برعاية طيورهم.

ورغم كل شيء ما تزال أسراب الحمام تملأ سماء سوريا، وما زال البعض من محبي الحمام يمارسون هوايتهم، كما أن تجارته ما تزال تدر الربح الوفير على أصحابها وقد صرح العمر بأنه خلال الشهر الماضي قد جنى ربحا يقدر بـ ١٠٠ ألف ليرة سورية من تجارة الحمام.

تجارة تتراجع

يحرص مربي الحمام على تلقي طيورهم للقاحات والأدوية بشكل منتظم، وذلك تجنباً للأمراض التي تصيبها وتنتقل بالعدوى بينها بشكل سريع، لا سيما الأمراض الموسمية التي تصيب الحمام، والتي يجب معالجتها بشكل سريع وإلا ستكون العاقبة خسارتها كمرض «سل الطيور، وزكام الطيور، وحمى الطيور، ومرض الجمرة» وهو ما يؤكده «يحيى العمر» أحد مربي الطيور من

أسعار طيور الحمام وأنواعها

يجلس أحمد الحمدو أحد أبناء مدينة ادلب على سطح منزله يراقب ويتأمل بهدوء تام طيور الحمام خاصته مشيراً إلى أن هناك عدة أنواع لطيور الحمام، ولكل منها مزاياه وصفاته، منها الحمام العادي الذي يربى للأكل، وهناك الحمام الزاجل ذو القدرة العالية على الطيران لمسافات طويلة تصل لأكثر من ٥ آلاف كيلو متر بالإضافة لذاكرته القوية في حفظ مكانه، ويتراوح سعره ما بين الألف ليرة سورية والخمسة عشر ألف ليرة سورية.

وينوه الحمدو إلى الفروقات الكبيرة في أسعار الحمام فما بين سعر زوج «المشيمشي» الذي يمكن أن يصل سعره للمليون ليرة سورية، إلى «شكلي» و «بايملي» الذي يصل ثمن الزوج منه إلى ٥٠٠ ألف ليرة سورية، كما أن هناك «الحردوني» و «أبيض بذنب» يصل سعر الزوج منهما لل ٤٠٠ ألف ليرة سورية، إضافة لزوج «العرجيني» ٢٥٠ ألف ليرة سورية، ويلعب لون الطائر وجسده وطول رقبته ومنقاره وأرجله وحجمه وعيناه دورا كبيرا في تحديد سعره.

ويوجد أنواع أخرى من الحمام ذات ثمن عادي كالمرقع أصفر، عباسي أزرق، بلجيكي، كشميري، هندي، قرنفلي أزرق، مطوق أزرق»، بعضها اكتسب تسميته من موطنه الأصلي كالهندي والبلجيكي على حد زعم الحمدو.

وللحمام أدوات زينة يقوم المربون بتزويد طيورهم بها، وهي عبارة عن خلاخل وأساور في الأرجل وحلق يعلق في جلد الحمامة في رقبتها، كما يداوم أصحابها على تنظيف حظائرها وتزويدها بالطعام والمياه، وإضافة لأمكنة للجلوس ومراقبتها في ساعات انفرادهم بها.

رغم ما أكده العرف عن كذب الحميماتية وعدم قبول شهادتهم بعيداً عن حقيقة القانون الذي لم يأت على ذكر ذلك، إلا أن أصحاب الحمام ينفوون تلك التهم عنهم ويؤكدون أن من يعاشر الحمام ويتآلف معه لا يمكن أن يسيء إلى البشر.

الطاعون.. واقع سنوات الموت في كل مكان

الطاعون رواية فرنسية نشرت في العام ١٩٤٧ لألبير كامو الجزائري المولد، حازت على جائزة نوبل للآداب بعد عشرة أعوام على صدورها، وهي إحدى أهم الروايات التي يتوجب على كل قارئ أن يطالعها، إذ لا مجال أبداً للهروب منها أو حتى تأجيلها إلى وقت آخر... راجَعها وتحدّث عنها كثيرون حول العالم، ومنها تبدأ كبرى المشكلات وتنتهي في عالم يبدأ وينتهي هو الآخر بالصراخ.

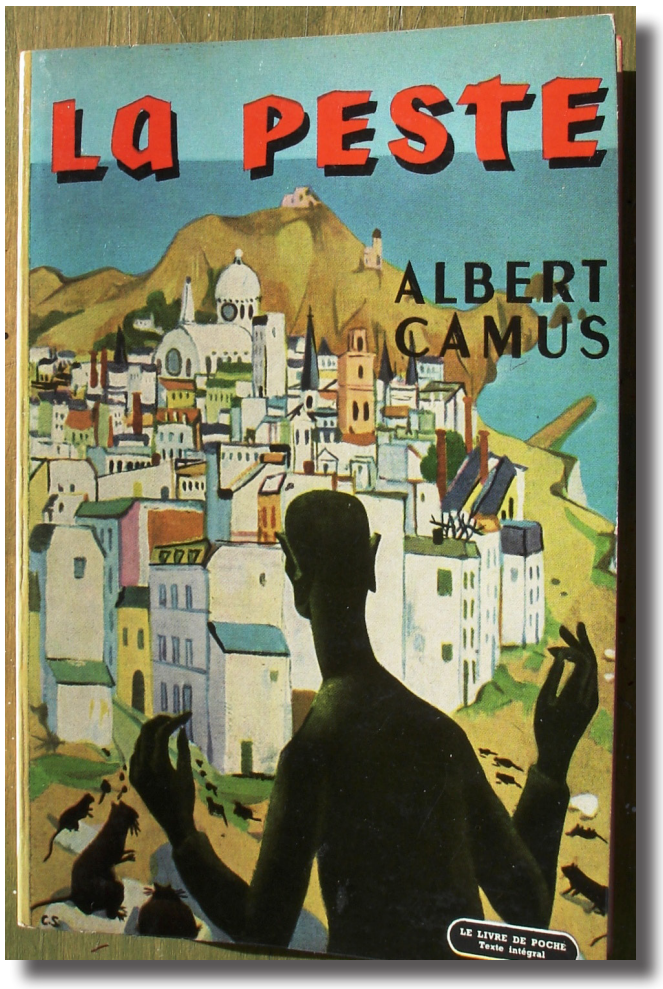

عبد الله الحسن

تدور أحداث الرواية في مدينة وهران الجزائرية الجامدة الكسولة -حسبما يصفها الكاتب- الخالية من أحداث جديدة تثير الشغف، يقطنها أناس من النوع صعب الاستثارة بسبب الروتين المتكرّر، إلى أن يأتي اليوم الذي تبدأ فيه جثث الفئران والجرذان بالظهور لتجتاح عدوى الطاعون المدينة، ويكتسحها الهلع مع إعلان إغلاق كافة مداخلها والمخارج.

الطاعون الذي أصاب مدينة وهران في الرواية غير حقيقي، وهران لم تعرف الطاعون في أربعينيات القرن الماضي، إلا أنها عرفت الكوليرا قبلها بمائة عام، وسبب اختيار كامو للطاعون يكمن في كونه -ضمن المخيال الجمعي البشري- شكلاً من أشكال العقاب الإلهي القادم من السماء، جاء به الكاتب من الميثولوجيا، إذ يرد أقدم ذكر له حسب البعض في ملحمة «اتراحسيس» البابلية، حيث يزعج ضجيج البشر المتكاثرين الإله «إنليل»، فيأمر «اللجنة المركزية» للآلهة بإسكاته: «هذا الصخب الذي يحدثونه يمنع عيني من الرقاد... فليكن ثمة طاعون يسكتهم!».

لم يقصد كامو مدينة وهران بقدر ما أراد الإشارة إلى واقع فرنسا في الحرب العالمية الثانية بعد أن اجتاحتها القوات النازية، وانهارت مع دخول ذاك الغازي الأمة الفرنسية المعتدّة بنفسها، وغمرها شعور عميق بالخزي والعار... وهران في الرواية تحتلّ شوارعها الجرذان والفئران، ويسودها عدل مطلق، إذ الجميع محكوم عليهم ومتساوون أمام هذا الداء؛ لم يكن للمدينة أمل بمساعدة خارجية إطلاقاً، ولم يكن بوسعها أيضاً إلا أن تبتكر الحل من الداخل، أو أن يهلك الجميع.

تصوّر أحداث «الطاعون» الطريقة التي يتعامل بها المحاصَرون مع المصائب الكبرى؛ (رجال الدين) يفسّرونه على أنه وباء من الرب ناتج عن فساد قلوب الناس وضياعهم في متاهات الدنيا وملذاتها، وتتلخّص حلولهم الوحيدة في «العودة إلى الله»، حتى أنهم كلما ازدادت أعداد الضحايا ازداد تشبّثهم بمعتقداتهم أكثر، وذلك كـ رد فعل عكسي تجاه الشكوك التي تساورهم ليل نهار من أن (الإله) يخذلهم ويختبرهم.

السياسيون يلقون الخطب ويقيمون النصب التذكارية للضحايا، ويطالبون الجميع بأن يثقوا ويتشبّثوا بمحافظ المدينة الذي سيخلّصهم بلا شك، والمشرّدون يمثّلون مرحلة الأمل غير المبرر، يجتمعون كفريق من المتطوعين يعملون تحت إشراف الأطباء، تبدو عليهم ملامح الحماسة والشغف بإنقاذ الأرواح، إلا أنهم عملياً يائسون ولامبالون يحاولون إنقاذ أنفسهم عبر الآخرين وسط المدينة المحاصرة.

والصحفيون من جانبهم يمثلون حالة الأمل، لكن ليس فيما يتعلّق بالخلاص من الطاعون، إنما بالسعي نحو الخروج من المدينة المشؤومة، يحاولون بكلّ الطرق القانونية وغير القانونية عبر التودّد والإقناع بأهمية خروجهم من هذا المستنقع إلى مدن أخرى لنقل صورة ما يجري، وهم في الداخل أنانيون بشكل مفرط، يظهرون مشاعرهم تلك على أنها إحدى أشكال الكفاح.

أما الشخصية الرئيسية في العمل فقد كان الطبيب «ريو»، الذي عبّر من خلاله كامو عن مواجهة الموت بالثبات والمقاومة العقلانية من الداخل، كان يعلم ريو جيداً أنه لن يحط جيش أو تعداد هائل من الملائكة على شواطئ المدينة لإنقاذها، كان يعلم أن كل من فيها هم جزء من هذا الطاعون، أنهم أداة من أدواته وإحدى تبعاته الأصلية حتى حين يحاولون النجاة، وأنهم مهما ظلوا ينتظرون من يخلّصهم إنما هم يتحولون إلى طاعون آخر تتسع دائرته يوماً بعد يوم.

ما وراء السور.. هنا وهناك

سحر الأحمد

ترجل من سيارته الأنيقة، رتب هندامه كما لو أن مرآة أمامه، من الجانب الآخر ظهرت سيدة تضاهيه أناقة، حملا سلات من الورود الملونة تكاد تقول أنا الحياة، أنا الماضي بكل تفاصيله المضمرة والمعلنة، أنا الحاضر، والمستقبل أنا.

دخلا مكاناً يشبه الجنة، كانت الابتسامة لغة الحوار بينهما إلى أن وصلا لمحاذاة مكان سكني، والذي لا يفصلني عنه سوى سور صغير.

كنت أسكن بجوار العالم الآخر دون أن أدري، تفنن أبنائي خلال الأيام الماضية في محاولاتهم الاحتيال على الأمر والاحتياط لإخفاء أمر مجاورتي للمقبرة اتقاء لما يمكن أن تكون عليه ردة فعلي تجاه هذا المكان.

عشت أياماً لا أدري حقيقة جيراني، إلى أن أتى يوم وكانت صدمتي، وأفجع فيه من حقيقة معرفتي بعالم ما وراء السور.

تداعت الذكريات المرعبة بعد مواجهتي حقيقة عالم الجوار الجديد، كنت صغيرة عندما اصطحبتني أمي معها ذات يوم إلى مقبرة العائلة في "باب الصغير" بمدينة دمشق، كانت موحشة كعجوز وحيدة، فقيرة لكل شي إلا ازحام القبور، كنت أتعثر أثناء سيري بين ممرات القبور إلى أن وصلنا قبر جدتي.

كم من ليال مرت علي، والتفكير بما يجري يشغلني ويجتاحني دون رحمة، فما زُرع في ذاكرتي الطفولية عما وراء السور من كائنات وأشكال في باب الصغير، كان هو تخيلي لعالم ما وراء السور هنا.

لم أتقبل وجود هذا المكان حتى بعد اكتمال وعيي وتقبّلي لحقيقة حتمية الموت وبديهيته كنهاية طبيعية للإنسان، كنت أتجنبه، بل أخشاه وأرتعب من معارك ومقاصل ما وراء السور في بلادي.

بعد تردد لم يدم طويلاً، قررت الدخول وراء الرجل والمرأة واكتشاف عالم ما وراء سورهم، وأنا أتساءل هل هو ذاته عالم ما وراء السور في بلادي؟.

لم يمنعنِ الرعب عن حب اكتشاف المجهول واختبار كنهه، حاولت جاهدة بنظراتي إليهم أن أقول لهم: يا جماعة هذه الأناقة وهذا الفرح لا تليق بهذا المكان.

ستفسدون أناقتكم وتتعثرون، وهنا سيعلو الطين أحذيتكم النظيفة اللامعة.

كل محاولاتي ذهبت سدىَ، كانا يبتسمان ويتبادلان الحديث مع كل من يصادفانه من مرمر وغرانيت ورخام بكل ألوانه.

جلست قريبة منهما مأخوذة بكل ما وقعت عليه عيناي، الورود الملونة الباذخة الترتيب تغزو المكان وتحتله بأناقة، الشجر تم تنسيقه بذوق، والحجر صيغ بمهارة حتى خلته ينطق جمالاً. ممرات نظيفة، مقاعد خشبية تأخذ أمكنتها اللائقة بين الألوان، عصافير تتنقل بين الأشجار والرخام الذي تحسبه ورداً لفرط بهائه وتألقه.

وجدتني أبتسم راجعة لمسكني وأنا أتمتم، سلاماً لأرواحكم أيها الراقدون تحت هذا التراب، ليت أموات بلادي تسري عليهم قوانين الهجرة لينعموا برفاهية افتقدوها في حياتهم وقضوا قهراً، وهم يحاولون انتزاع أبسط حقوقهم الآدمية.

هنا باريس.

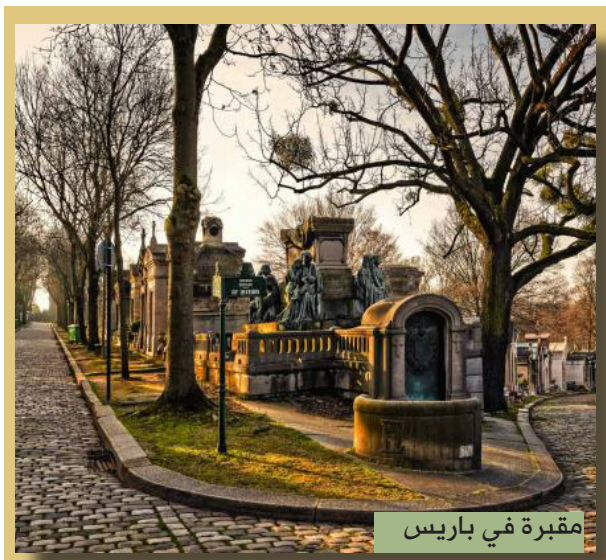
مقبرة في باريس

مقبرة باب الصغير في دمشق

لا تسلني من أين أنا؟

ياسمين محمد

أنا من شبه قرية قبل الثورة لم يكن يعرفها سوى أهلها وبعض أهالي القرى المجاورة، على خريطة العالم كانت موجودة باسم غير اسمها، تجدها على الخريطة باسم يعني الدم، ولا أعرف من أين جاء اسمها.
ليس لشكله أو غرابته بالنسبة للأطفال، في طفولتنا كان مجسم الكرة الأرضية في مدارسنا يجذبنا نحن أبناء القرية، وكنا كلما رأيناه أو دخلنا إلى غرفة الإدارة ننظر إليه بتمعن وفخر، وكأننا نود أن نقول للجميع بأن اسم قريتنا موجود على الكرة الأرضية، حتى ولو كان هناك اختلاف بحرف واحد.

أنا من قرية ريفية صغيرة، بسيطة حتى في ملامحها، تترامى منازل أهلها على جنبات الطريق، كل منزل ضمن أرض شاسعة لا تعرف نهايتها سوى من خيال منازل القرى المجاورة من الجنوب، والأتوستراد الدولي من الشمال، تسمح لك بذلك منازلها المتكونة من طابق واحد باستثناء بضعة منازل في حيّها الشرقي.

حيّين لا أكثر قريتي، امتدت بضعة منازل في الحي الشرقيّ جنوباً وشمالاً محاولةً التمرد والخروج عن سيطرته، وتشكيل أحياء إضافية، ولكن دون جدوى، بينما حافظ حيّها الغربيّ على أصالته.

في الشتاء تشبه مدن الأشباح، تخلو من غالبية أهلها، ولا تشتعل فيها سوى أنوار بضعة بيوت متفرقة، معظمها في الشرق، عدد سكانها الكليّ يضحكك لو عرفته، فكيف إن عرفت عدد المغتربين من أبنائها، وعدد المقيمين فيها طيلة العام!.

كمعظم شباب وصبايا القرية، لم أُولد فيها ولم أعش فيها، أزورها في المناسبات، وفي العطلة الصيفية هي مصيفنا وبحرنا وكنز منازلنا الشتوي، وبدل أن نذهب إلى البحر نصطاف فيها، ويلم شملنا مساءاً شارعها الوحيد، الذي يعج بكافة الأعمار من الرضيع إلى المسن، بينما يجمعنا نهاراً أحد بيوتها، الذي يكون دوره في إعداد المونة.

من يمر فيها صيفاً يظن نفسه قد أخطأ الطريق، في الشتاء خاوية وفي الصيف عامرة بالحب والفرح والنور والنشاط، ولا سيما في عطلة نهاية الأسبوع.

لن تصدق بأنها هي ذاتها تلك القرية التي كنت تسمع صوت الإبرة فيها، فيما أصوات ضحكات أهلها اليوم تصل إلى أبعد نقطة في سوريا، ويتفاجأ أهالي القرى المجاورة بشبان ورجال ربما يرونهم مرة كل عام يسبحون في نبع ماء متواضع في أجمل بقعة، أو عند البركة في ذات البقعة.
مكان لا يمكن للكلمات وصفه، أرضه صخور بركانية، بعضها محفور تملؤه مياه الأمطار، تفقز فوقها لتصل للضفة الأخرى، وبعضها اتخذ شكل مجلس ملكي تجد كرسي الملك في المنتصف محفور على جانبيه ما يشبه الطاولة المستديرة، يتسابق الصغار والكبار إلى الكرسي ليجلس البقية حول من فاز به.

في الربيع تمتلئ أرضه بالنباتات والأزهار المختلفة، وعلى الرغم من كثرتها تتراكض النسوة لجمع أكبر قدر ممكن منها، ولا تبقى سيدة في منزلها، ويصبح اعتماد الأهالي في وجباتهم الغذائية طيلة الفصل على ما تنتقيه النسوة كل يوم من أرضه التي يدعونها «السطح»، ودون ملل من الأطعمة المتكررة والنزهة اليومية يتمنى الجميع أن لا ينتهي الربيع، على الرغم من جمال الصيف فيها بالنسبة لهم، فهو أشبه بالحفلات والأعياد بالنسبة لهم.

أما الزعتر البري ذو الزهور البنفسجية، فهو لوحة بحد ذاته، لون أخضر متناسق مع البنفسجي، ورائحة فواحة، وطعم أشهى، وفوائد جمّة، ويقطفون منه ما يظنون أنه يكفيهم لأعوام، بينما هو في الواقع لن يكفيهم لأشهر، يقبلون على شربه بنهم في البداية ثم يبدؤون بالاقتصاد منه وتوفيره لنزلات البرد وآلام البطن والمعدة، يفضلونه على البابونج رغم اهتمامهم به وخزنهم له والاستفادة من فوائده الصحية هو الآخر.

في الصيف لا حاجة لهم بالأسواق، فالمزارعون من المدن والقرى وحتى من ريف دمشق، وبشكل خاص أهالي إنخل ودوما، يستأجرون أراضيها ويزرعونها ويبيعون محاصيلهم وخضراواتهم في سوق الهال وفي الأسواق التي تنتظم كل يوم في مدينة أو بلدة.

جمال قريتي لم ينل من نخوة رجالها ونبلهم الذين لم يبق منهم إلا القليل القليل بعد دخول متكرر لجيش النظام في محاولة لإخضاعهم، وبعد تحولها لمعقل للمنشقين عنه، وحصارها لفترة، كما كان لداعش دورة فيها لم تدم سوى ساعات، واليوم هي في برزخ من السيطرة ما بين النظام والمعارضة.

ذكريات وأعمار قتلتها الحرب وشردتنا وشتّتنا على قلة عددنا ما بين فرنسا والسويد والنمسا وهولندا وألمانيا وأمريكا ومناطق النظام والمناطق المحررة في سوريا، نسأل ونتواصل عبر هواتف خليوية، لم يكن لها في السابق مكان في جلساتنا وسهراتنا اليومية.
تضيع منا الكلمات، وكلما حاولنا الابتعاد تعود بنا إلى الذكريات، فتقتلنا الغصة ونصمت هاربين لننهي المحادثة، ليبقى لسان حالنا يردد ما ردده شاعر عربي عاشق لمكانه: «فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى وليت الغضى ماشا الركاب لياليا».